علوم العربية ومنهجية الجمع بين القراءتين

عادل الشيخ عبد الله*

تقديم

إن مصطلح (الجَمْعُ بَيْنَ القِرَاءَتَيْنِ) مُقْتَبَسٌ من العلواني[1] الذي استلهمه من فعلي الأمر في سورة العلق ؛ حيث قال الله تعالى آمراً رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ" (العلق: 1-3). فالقراءة الأولى قراءة وحي باسم الله تعالى، والثانية قراءة الخَلْق ودراسة الوجود.[2] وهاتان القراءتان تُمَثِّلان كتابين يجب قراءتهما: وهما كتاب القرآن المعجز والكون الذي يمثل كتاباً مفتوحاً.

مقصد القراءة العقدية: هو إقامة الإنتاج العلمي للأمة الإسلامية على هدى الإسلام؛ محتوىً، ومنهاجاً، بينما تهدف القراءة الكونية إلى احتواء كل معطيات الفكر الإنساني -في كافة ميادين المعرفة- التي لا تتعارض مع مبادئ الدين الإسلامي. فالقراءة الكونية يقوم بها العقل الذي يُحرِّك، ويَضْبط حواس الإنسان التي من خلالها يتلقي المدد المعرفي. وهذا العقل الذي (يَعْقِلُ) الحواسَ ليس مُطْلَقاً يهيم أنّى وكيفما شاء، وإنما (معقول) هو الآخر بالوحي الذي "يوجهه[3] في المجالات التي تخرج عن قدرته المحدودة في المعرفة والإحاطة والإدراك. وتتمثل تلك المجالات في كل ما يتصل بعالم الغيب الذي يعتبر هو النظام المعرفي الحاكم على عوالم المعرفة كلها."[4]

---

* دكتوراه في علم اللغة، أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية بالجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا.

1 العلواني، طه جابر. الجمع بين القراءتين: قراءة الوحي وقراءة الكون، الإنسان، العدد الثالث عشر، السنة الثالثة شوال 1415 هـ / مارس 1995، ص 53.

2 العلواني، طه جابر، المصدر السابق، ص 54.

3 أي يوجه العقل.

4 رجب، إبراهيم. ثورة التنظير في العلوم الاجتماعية، المسلم المعاصر، العدد 98، ديسمبر 2000م، ص 31.

وهاتان القراءتان لابد من اتحادهما في كُلٍّ واحد؛ يُقرآن معاً وذلك "لتوحيد المعرفة الحضارية الكاملة التي تمكن الإنسان من القيام بمهام الاستخلاف."[5] فالأخذ بأيهما منعزلاً عن الآخر يؤدي إلى معرفة مُبَتَسَرَة؛ أي ناقصة.

وهذا الفهم هو الذي قامت عليه فكرة الأسلمة التي يتبناها المعهد العالمي للفكر الإسلامي في الولايات المتحدة الأمريكية، وتنفذ في بعضٍ من الجامعات الإسلامية، وبصورة جلية في الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا، وقامت على ذات الفكرة دعوات التأصيل في جامعات السودان، والمملكة العربية السعودية، وبعض الجامعات الإسلامية الأخرى.

وفكرة الأسلمة أو التأصيل شاملة لجميع مجالات المعرفة في كافة أنواع العلوم النظرية والتطبيقية. وقد بذل المهتمون بفكر الأسلمة جهداً مقدراً في الجانب النظري والتطبيقي في كافة مجالات المعرفة. وقد حظيت العلوم الإنسانية باهتمام أكبر مقارنة بالعلوم التطبيقية؛ وما ذلك إلا لأنها أكثر عرضة لغزو الأفكار غير الإسلامية، خلاف العلوم التطبيقية التي لا يؤثر فيها فكر ما؛ فهي علوم من الممكن وصفها بأنها علوم محايدة، أي لا تعكس فكراً ما، فالطب مثلاً هو هو سواء كان في بلاد إسلامية أو نصرانية أو يهودية، وكذلك الهندسة والصيدلة وغيرها من العلوم المشابهة.

ويبدو لمن يستعرض الإنتاج الفكري للأسلمة أن البحث في مجالات أسلمة علوم العربية قليل مقارنة بالعلوم الإنسانية الأخرى كالاقتصاد، وعلم النفس وعلم الاجتماع. ومعظم هذا القليل استأثرت الدراسات الأدبية بنصيب الأسد منه؛ وما ذلك إلا لأن حقل الأدبيات أكثر قابلية للتأثر بالفكر الآخر من اللغويات التي تُمَاثِلُ -في معظم موضوعاتها- العلوم البحتة كالكيمياء والفيزياء والرياضيات. والشاهد على ذلك أنه يوجد كم هائل من الدراسات والمؤلفات في ميدان الأدب الإسلامي. كما وأنه في معظم اللقاءات وحلقات النقاش التي عقدت في هذا الشأن كان حظ اللغويات ضئيلاً، وعلى سبيل المثال ففي (ندوة الإسلامية) في اللغة العربية وآدابها التي عقدت في الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا، قدمت ثمانية بحوث؛ منها ستة عن الأدب وثنتان فقط عن اللغويات.[6] وفي ميدان اللغويات لا توجد إلا اجتهادات

---

[5] العلواني، طه جابر، المصدر السابق ص 54.

[6] عقدت ندوة الإسلامية في اللغة العربية وآدابها (رقم 12) في الجامعة الإسلامية بماليزيا في عام 1997.

قليلة. ففي جانب ألف الأستاذ أكرم سعد الدين وآخرون (سلسلة القلم)[7] لتعليم العربية لناطقيها وغيرهم. وفي الجانب النظري قدم طه جابر العلواني آراء واجتهادات قيمة مبثوثة في سلسلة اللقاءات والمحاضرات التي يلقيها في (المعهد العالمي للفكر الإسلامي) وكتاباته في (مجلة المسلم المعاصر) و(مجلة إسلامية المعرفة). وفي هذا المجال النظري ألف أحمد شيخ عبد السلام كتاباً عنوانه "مدخل إسلامي للغويات العامة". وله اجتهادات أخرى في هذا الميدان.

وثمة تعليل آخر يبرر ندرة البحث في أسلمة علوم العربية ألا وهو خصوص العلاقة بين العربية والدين الإسلامي. يضاف إلىذلك غموض فهم دلالة مصطلح الأسلمة لكثيرين. لقد فرض هذا الارتباط بين العربية والإسلام وغموض المصطلح سؤالاً تقليدياً يُجَابه به القائمون على أمر الأسلمة بسؤال اعتراضي تقليدي ألا وهو:

هل علوم العربية في حاجة إلى أسلمة؟

وهذه الدراسة التي بين أيدينا تحاول الإجابة على هذا التساؤل وأن تصوغ تصوراً لمفهوم أسلمة اللغويات، وتُخطّ أمثلة تومئ بها إلى مسارات الأسلمة؛ وما ذلك إلا لأن تحديد المسارات الكلية الشاملة للأسلمة لا يمكن حصرها، واستيفاؤها في دراسة واحدة.

وإذا كانت الأسلمة تعني "إعادة صياغة المعرفة الإنسانية وفق الرؤية الكونية التوحيدية من خلال الجمع بين القراءتين: قراءة الوحي وقراءة الكون"[8]، فإن ذلك قد تم. وعليه فإنه يبدو من نافلة القول الحديث عن أسلمة العربية؛ فاللغة العربية قد قرئت قراءة وحي، عندما نزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى "إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ"(العلق: 1).

كانت تلك اللحظة نقطة تحول كبيرة في تاريخ العربية؛ وكانت ميلاداً لدور رسالي وحضاري كبير تقوم به العربية، بل كانت لحظة ميلاد عربية جديدة ليست كتلك العربية

---

7 سلسلة لتعليم العربية معتمدة في قسم لغة القرآن في مركز اللغات بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا. قام بتأليف هذه السلسلة فريق من معلمي اللغة العربية بالجامعة الإسلامية وترأس الفريق المرحوم د. محمد أكرم سعد الدين.

8 العلواني، طه جابر. الجمع بين القرائتين، مصدر سابق.

الجاهلية. لقد أسلمت العربية؛ فهذبت من الحوشية، ومن اللفظ الغريب، واكتسبت كثير من الألفاظ الجاهلية دلالات إسلامية.

لقد صوَّر ابن فارس أثر القرآن في العرب والعربية قائلاً:" لقد كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ... فلما جاء الله بالإسلام حالت أحوال، ونسخت ديانات... ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع أخر وزيادات زيدت، وشرائعَ شُرِّعت... كان مما جاء في الإسلام ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق، وإن العرب إنما عرفت المؤمن من الأمان والإيمان من التصديق..وكذلك الإسلام والمسلم، إنما عرفت منه إسلام الشيء ثم جاء في الشرع من أوصافه ما جاء كما جاء الإسلام بدلالات لكلمات أخر لم تكن معهودة لها كالفسوق والصلاة والزكاة والإيمان والركوع والسجود والخشية والخشوع وغير ذلك من الألفاظ الدينية."[9]

وتبع ذلك أن اللغة سلوك فردي، عدلت من خطاب جاهلي إلى سلوك إسلامي قويم في النثر، والشعر، وسائر الكلام اليومي. ذلك أن المسلمين كانوا يقتدون بالرسول صلى الله عليه وسلم قولاً وفعلاً. فالرسول صلى الله عليه وسلم هو المثال الذي انتهى إليه الكمال اللغوي. يقول الجاحظ: إن الرسول صلى الله عليه وسلم " لم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة وشيِّد بالتأييد ويُسِّرَ بالتوفيق."[10] أو لم يقل الله تعالى "وَ مَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوْحَي" (النجم: 15).

وفي القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة توجيهات وإشارات للكيفية التي بها يكون القول طيباً، ولما ينبغي أن يكون عليه سلوك الفرد. وعلى المستوى الاجتماعي فالإسلام قد وحَّد العرب لغوياً، وصاروا يتحدثون لهجة واحدة، هي لهجة قريش. ولولا الإسلام لتطورت كل لهجة إلى لغة مختلفة كما حدث للاتينية التي انقسمت إلى لغات أوربا الحديثة.

أما القراءة الكونية فقد كانت عندما هَبَّ فطاحل الأمة لمقابلة التحديات العلمية من انحراف للقراءات وتصحيفٍ فيها، فخلقوا علوم اللغة من نحو وصرف وبلاغة ومعجمية. إذن

---

9 أنظر: شوقي ضيف. تاريخ الأدب العربي، ج 3، ص 33.

10 الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر. البيان والتبيين، (تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون) القاهرة: مكتبة الخانجي، 1968م، ج 2، 17 ص.

فتلك العلوم، كما اتفق فيها، إسلامية النشأة. وفي هذا يقول شوقي ضيف: "إن العلوم الإسلامية كلها قد قامت لخدمته (أي لخدمة الإسلام)، فهو الذي هيأ بقوة لنهضة العرب العلمية."[11] ويقول سزكين: "لقد بدأت الدراسات اللغوية في أبسط صورها بعد تدوين المصحف العثماني وفي إطار دراسة القرآن الكريم."[12] و لم يكن للعرب دوافع قومية عندما بدأوا يخطون علومهم كما زعم بذلك أبو سعيد محمد عبد المجيد في ذيل قوله " إن الأسس التي بنيت عليها نشأة الصرف، هي أسس إسلامية مفادها الحرص على أداء القرآن أداءً صحيحاً، بجانب دوافع قومية عربية واجتماعية، سياسية وغيرها."[13]

فالإمام علي رضي الله عنه (ت 40 هـ) لم يكن مدفوعاً بعصبية أو قومية عندما عهد إلى أبي الأسود الدؤلي (ت 69هـ) صناعة النحو. و لم يعرف عنه ذلك إطلاقاً. بل وما كان الدافع القومي ليظهر في عصر صدر الإسلام الذي نبذ القومية، وجعل المسلمين أمة واحدة.

إلا أن هذا لا يعني أن القراءتين قد اكتملتا، وأن أبواب الاجتهاد اللغوي قد غُلّقت. وإن كان هذا هو الواقع فإن فيه مناقضة مع سنن الحياة التي من لوازمها التطور والنماء اللذين لن يوجدا بدون تجديد فكري يستلهم روح العصر. وما دامت الأسلمة من أنشط آليات تجديد فكر الأمة في هذا العصر، فهي تضحى مطلباً لازماً لتجديد فكرنا اللغوي الراهن الذي ران عليه الجمود في كثير من جوانبه واغترب عن ماضيه في أخص ميزاته، وعجز عن استيعاب كثير من معطيات العصر.

حقاً إن علوم العربية في حاجة إلى أسلمة، بيد أنها تختلف عن أسلمة مجالات المعرفة الأخرى كالاقتصاد، وعلم النفس، وعلم الاجتماع؛ وما ذلك إلا لخصوصية العلاقة بين العربية والإسلام. وهذا الاختلاف وهذه الخصوصية -كما سبقت الإشارة إليهما- نتجتا من طبيعة نشأة علوم العربية والعلوم الإنسانية الأخرى؛ إذ إن معظم العلوم النظرية وفدت بمفاهيمها الحديثة إلى العالم الإسلامي من الغرب فهي غربية المولد. أما علوم العربية فهي كما أسلفنا

---

11 ضيف، شوقي. المصدر السابق، ص 32.

12 سزكين، فؤاد. تاريخ التراث العربي، (ت د. محمود فهمي حجازي ود. فهمي أبو الفضل) القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1977م.

13 عبد المجيد، أبو سعيد محمد. " الأسس الإسلامية في الدراسة الصرفية "، ندوة المنهجية في اللغة والأدب. الجامعة الإسلامية العالمية، 7 / 2 / 1998م، ص 22.

إسلامية المنشأ، إلا أن بعضاً من مجالاتها، وخاصة علم اللغة التطبيقي، وعلم اللغة الحديث قد ولدا في الغرب. وكما هو معلوم فإن العربية وعلومها التي نشأت إسلامية قد تعرضت كما تعرضت مجالات المعرفة الإسلامية والعربية الأخرى لتبديل وتحريف وتأثير في مرحلة تاريخية تالية لعصر النبوة والراشدين؛ وذلك نتيجة لظروف سياسية وفكرية.

يضاف إلى ذلك أنها -أي المعرفة الإسلامية والعربية- قد أصابها الجمود فتخلفت منهجياً وهذه الحالة من التردي في العربية وعلومها لتدعو إلى الإصلاح العقدي والمنهجي بإعادة قراءتها بناء على قراءتي الوحي والكون وهذا هو جوهر أسلمة المعرفة وما تحاوله هذه الدراسة أيضاً. غير أن مفهوم الأسلمة الذي تتبناه هذه الدراسة يختلف عما عليه في بقية العلوم الاجتماعية الأخرى. إنه يعني: التأصيل والتجديد. فما مفهوماهما؟

تدل كلمة (التأصيل) على الرجوع إلى الأصل ونبذ التقليد والتبعية والاغتراف من المورد الرائق الذي قد نهل منه رواد علوم العربية الأصلاء أمثال الخليل بن أحمد الفراهيدي، وأبي الأسود الدؤلي، ونافع بن الأزرق، وعمرو بن المثنى وغيرهم. ويُقصد بهذا التأصيل إنهاء حالة التبعية الفكرية والهيمنة العلمية الغربية؛ وذلك لاستقلال الأمة معرفياً.

وتفعيل التأصيل -كما يرى الباحث- ما هو إلا تنقية العربية وعلومها من كل المؤثرات، والأفكار التي تتعارض مع تعاليم الإسلام مع إحياء المنهجية العلمية الواقعية التي طرقها لغويو التراث. إذن فالتأصيل ذو محورين: **محور عَقَدِيٌّ وآخر مَنْهَجِيٌّ.**

فالتأصيل العقدي هو تأصيل للمعرفة اللغوية؛ ويكون ذلك باسترجاع المعرفة اللغوية التراثية مباشرة من مظانها في كتب التراث، بغرض تمثلها واستيعابها في درسنا اللغوي المعاصر؛ لأن المعرفة اللغوية العربية قامت أصلاً خادمة لعلوم الدين، ومنه استمدت حياتها. إنها معرفة غير مشوبة بكدر فكري. فالأمثلة مستقاة من مكونات العقل الإسلامي العربي فقط. وهي القرآن الكريم وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم وحكم العربي وأشعارهم وتجاربهم. وهذا الفكر قد نبت في أرض العرب ولم يتأثر بفكر آخر.

إن كثيراً من المعارف الخاصة بعلم اللغة طرقت من قبل، ونقلت إلى الغرب ثم جاءتنا مرةً أخرى عن طريق الغرب مع تبديل، ونقص، وتحريف، منسوبة إلى غير أهلها. ويعني التأصيل

المنهجي: تمثل المنهجية التي اتبعها اللغويون السابقون في تقنين اللغة والتأليف؛ وما ذلك إلا لأن هذه المنهجية تتناسب والفكر اللغوي العربي. وما دام إرث الأمة غنيّاً في معرفته، حافلاً بـــمنهجيّة فَعلام التبعية والذيلية؟ ولم لا نستقلُّ بأنفسنا، ونستقي من بحر التراث مباشرة، ونهجر ما عداه؟ كما قال المتنبي في ممدوحه:

قَوَاصِدُ كَافُورٍ تَوَارِكُ غَيْرِه وَمَنْ قَصَدَ البَحْرَ استَقَلَّ السَّوَاقِيَا

فأي مصدر معرفي يضارع عباب الأمة الإسلامية الزخّار؟

أما (التحديد) فهو أيضاً يقوم على: محور **عقدي**، وآخر **منهجي**. ويُعْنَى بالأول تجاوز دلالة التأصيل المشار إليها سابقاً والمتمثلة في غربلة الفكر اللغوي من القضايا الفكرية التي تتعارض مع ديننا الحنيف، إلى توجيه اللغة وجهة رسالية مع عصرنة علم اللغة وتحديث اهتماماته ومضامينه؛ وذلك من أجل ارتقاء، ونماء الواقع العلمي المتخلف للأمة. أما التحديد المنهجي فيعنى به إقامة الدرس اللغوي على منهجية علمية حديثة.

لِمَ التجديد؟

ثمة تبريرات عدة تسوقنا نحو تجديد الفكر اللغوي العربي، نعدد منها بإيجاز ما يلي:

أولاً: لو نظرنا في هذا الفكر اللغوي العربي نجده موسوماً بحالة من الجمود الفكري، وليس ثمة عطاء متجدد فاعل فيه؛ فنحن إذ أنّا نُخْضع -أحياناً- المقولات اللغوية المُحْدَثة إلى ضوابط وتصورات تراثية، ترجع بنا إلى أوائل البعث اللغوي العربي أي عصر التدوين اللغوي ظانين أنه ليس في الإمكان أفضل مما كان.

ثانياً: إن موروثنا اللغوي يتألف من خليط من المعلومات والنصوص والتأويلات والشروح غير مبوبة ولا مصنفة ولا مصفاة [14]؛ وهذا مايدعونا إلى النظر فيها مرة أخرى لقراءتها وفق مستجدات العصر الراهن ومصلحته.

---

[14] الجابري، محمد عابد. **تكوين العقل العربي**. الرباط: المركز الثقافي العربي، 1983م، ص 66.

ثالثاً: تتضمن النصوص التراثية بعض الملابسات التي تُنقص من كمالها، وتُشكك في صحتها. ومن ذلك قضية الانتحال التي اعتادها كثير من الرواة وبعض الأعراب الذين امتهنوا قضية بيع اللغة؛ أي إخراج ما عندهم من المفردات اللغوية مقابل أجر يدفعه لهم جامعو اللغة. وصارت الرواية مصدر رزق لكثير من الاعراب الذين ينتجع إليهم الرواة أو يرتحلون هم إلى الحضر لسوم ما عندهم من اللغة.

رابعاً: لم يدون كثير من أدبيات الحركة العلمية يومذاك. ويطلق على ما لم يدون مصطلح "المسكوت عنه". ويشمل الجوانب العلمية التي لم يشملها اهتمام الذين دونوا المعارف العلمية. وليس ذلك لأنها لم تدخل في دائرة العلم، وإنما أهملت بدوافع فكرية ومن ذلك تعريب لغة الدواوين من اللغات الفارسية والرومية، وذلك لأن الإدارة في أول عهود الدولة الإسلامية كانت بيد خبراء أجانب يتحدثون تلك اللغات.

قد تبدو في ذلك مناقضة، لِمَنْ لَمْ يتأنَّ فيستفهم:كيف يُجمع بين تأصيل المعرفة وتجديدها؟. وكيف يجمع بين المنهجية القديمة والحديثة؟

ويقيني أنه ليس ثمة تناقض وتضاد في ذلك؛ فالتجديد والتأصيل لازمتان من لوازم سنن التطور السليم. فالتأصيل هو بمثابة الأس الذي يُبْنَ عليه أي جديد، وعدم التجديد سكون؛ فلا يجتمع تطور مع سكون. هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإن كل القديم ليس لازماً تأصيله؛ إذ منه ما يُبلىَ ومنه ما يتجاوزه الزمان؛ فما كان صالحاً بالأمس ليس من الضروري أن يكون ملائما لليوم ولغدٍ؛ فمن القديم كله ما يؤخذ، ومنه ما يُرَد، ومنه ما يجب استحياؤه إن كان ميْتاً.

إن التجديد المبتغى ليس كذلك الذي دعا إليه في زمن مضى من تاريخ الأمة مغرضون أمثال سلامة موسى وجورجي زيدان وقاسم أمين ولويس عوض ويعقوب صنوع ولطفي السيد وغيرهم من دعاة التجديد المغرض الذين رأوا أن التجديد يكون باستعمال الحرف اللاتيني، واستعمال العامية، واستبدال علامات الإعراب بحروف تكتب.[15] إن التجديد المرسوم

---

15 لمزيد من التفصيل ونفنيد دعاويهم في اللسان العربي والإسلام انظر: **معا في معركة المواجهة**. تأليف السيد رزق الطويل، مكة المكرمة: ادارة الصحافة والنشر برابطة العالم الإسلامي، 1986م.

هنا تحديد مقيد بالوحي ومصلحة الأمة التي يجب أن تكون وفق هدى الوحي. فالوحي من قبلُ ومن بعدُ.

التأصيل المنهجي

والذي يجب ذكره هنا هو: أن علماء الغرب قد استفادوا من الدراسات اللغوية العربية. وألفوا على نهج ما صنع العرب. ولئن كان للعرب فضل الريادة فللغرب فضل التطوير في حقل علم اللغة، ذلك أنهم ارتقوا بمناهج البحث، وطرقوا مواضع جديدة لم ينتبه لها اللغويون العرب مثل: علم اللغة التاريخي، وعلم اللغة الجغرافي، وعلم اللغة المقارن. كما أنهم مزجوا الدراسات اللغوية مع دراسة العلوم الإنسانية، فاستولدوا علم اللغة التطبيقي *applied linguistics*.

و"يعتبر القدامى من علمائنا –بحق – أساتذة لعلماء الغرب– إبان نهضتهم في هذا الجانب اللغوي، كما كانوا أساتذتهم في الجوانب الحضارية والثقافية الأخرى"[16]، بل إن كثيراً مما يقوله اللغويون في هذا العصر نقلوه من علماء اللغة العرب.

يقول حمّاد "والحقيقة التي لا تقبل جدلاً هي أن علوم اللغة المتعددة قد درست من قبل العلماء العرب مع بداية النهضة العلمية. ومنذ ظهور مدرسة البصرة والكوفة في بغداد، ولا يوجد مجال للشك في أن معظم علوم اللغة النحوية، والصرفية، والمعجمية، والاشتقاقية، والدلالية، قد زرعت بذورها عند العرب القدماء، وأن الدارس يستطيع أن يجد ذلك لدى الأصمعي، والخليل بن أحمد، وأبي زيد الأنصاري، وأبي عبيدة، والفراء، والكسائي، وغيرهم من علماء ذلك العصر، وتزامن مع هذه الطبقة من العلماء طبقة أخرى كان لها دور كبير في دراسة هذه العلوم نذكر منهم الجاحظ وابن جني وابن فارس، وعبد القاهر، والسيوطي وغيرهم."[17]

ورغم أن اللغويين القدماء ما تركوا شاردة ولا واردة في مجال اللغويات العربية، إلا أن كثيراً من اللغويين العرب المحدثين يستقون من لغوبي الغرب في بعض مجالات علم اللغة بكل

---

16 شاهين، توفيق محمد. **علم اللغة العام**، القاهرة: مكتبة وهبة، 1990م، ص 26.

17 حماد، أحمد عبد الرحمن. **علم الدلالة في الكتب العربية: دراسة لغوية في كتب التراث**، (د.م)، (د. ن)، 1986، ص 7.

ضروبه. ومثالاً لا حصراً، فهم يرجعون إلى بلومفيلد في مؤلفه (اللغة)[18]، وإلى نيدا في كتابه (المورفولوجيا)[19]، ودي سيسور في كتابه الذي لا يكاد يخلو منه مؤلف لغوي عربي (محاضرات في علم اللغة العام)[20]، وباي ماريو في (أسس علم اللغة)[21]، ويوهان فك في (العربية: دراسات في اللغة واللهجات والأساليب)[22]، وفندريس في (اللغة)[23] وغيرهم من لغويي الغرب الذين طبعوا عقل اللغويين العرب بخصائص التفكير اللغوي الغربي، وجعلوه أسير فكرهم.[24]

لا شك أن المعرفة تراث بشري مشترك، وملك مشاع بين البشر، غير أن معرفة كل أمة وليدة بيئتها، وما فصل لقوم قد لا يناسب أمة ما. ولذا فإن كان النبع تحت الأرجل فلم النجع؟

لقد اهتدى اللغويون القدماء إلى مناهج علمية تخدم القضايا العلمية التي أثاروها يومئذ. ولم يثبت دليل على كون هذه المناهج مقتبسة من أمة ما، فهي مناهج عربية النشأة. ف"إذا كانت الفلسفة هي معجزة اليونان فإن علوم العربية هي (معجزة) العرب. والحق أن ذلك العمل العظيم الذي تم في عصر التدوين على مستوى جمع اللغة وتقعيدها كان بالفعل أشبه شيء بالمعجزة." [25] حقاً، لقد كان ذلك العمل الجبار خرقاً للعادة؛ ذلك أن العرب كانت أمة أمية لا تهتم بالقراءة والكتابة؛ وليس لها من الإرث العلمي إلا ما تلوكه الألسن؛ ويتداوله الرواة. فالعلم العربي كان شفاهياً. وبتدوين اللغة وتقييدها دخلت العربية طور الدرس العلمي المنهجي.

---

18 Blomfield, Leonard. **Langugage**. Chicago. University of Chicago Press.

19 Nida, E.A. **Morphology**, Ann Arbor: University of Michigan Press. 1949.

20 Desaussure, Ferdinand. **Course in General Linguistics**, Mc Graw-Hill, 1965.

21 باي، ماريو. **أسس علم اللغة** (ترجمة احمد مختار عمر)، طرابلس، 1973.

22 فك، يوهان. **العربية: دراسات في اللغة واللهجة والأساليب**، (ترجمة عبد الحليم النجار)، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1951م.

23 فندريس.**اللغة**، (ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص)، القاهرة: مطبعة لجنة البيان العربي، 1950م.

24 أي العقل العربي.

25 الجابري، محمد عابد. المصدر السابق، ص 80.

لقد اهتدى اللغويون العرب إلى منهجية دقيقة وصارمة في مسح اللغة وتدوينها. وتم ذلك في مراحل ثلاث متداخلة. ففي الأولى تم جمع مفردات اللغة وتفسيرها دون ترتيب. ولقد اعتمد جامعو اللغة على مصادر أساسية وهي: القرآن الكريم، والحديث النبوي والأدب القديم بشعره وأخباره وأمثاله بالإضافة إلى السماع من الأعراب في باديتهم أو حين قدومهم إلى الحضر. ومن أشهر الكتب التي تمثل هذه المرحلة كتاب " النوادر في اللغة لأبي زيد الأنصاري" (ت 215 هـ).[26]

وفي المرحلة الثانية صنفت المفردات إلى رسائل صغيرة؛ تختص كل رسالة بسرد مفردات موضوع واحد مبنية على معنى من المعاني أو على حرف من الحروف. ويمثل هذه المرحلة كتب "الإبل" و"الشاء" و"أسماء الوحوش وصفاتها"، و"الخيل"، و"خلق الإنسان"، و"النخل والكرم"، و"النبات والشجر" للأصمعي (ت 216 هـ).

أما الثالثة التي جُمِعَتْ فيها كل مفردات اللغة في كتاب واحد، فيمثلها الخليل ابن أحمد الفراهيدي (ت 175 هـ) الذي تفتقت عبقريته عن منهجية فذة -غير مسبوقة بل وغير (ملحوقة) حتى الآن- في كتاب "العين"؛ حيث رتبه ترتيباً صوتياً، وحصر فيه كل مفردات اللغة: ما استُعْمِلَ منها، وما أُهْمِلَ،مستخدماً نظرية التباديل والتوافيق الرياضية. ولقد كان عمل الخليل فتحاً في المعجمية العربية؛ ولا يزال الناس عيالاً على منهجيته، وإن خولف أحياناً.

إن هذا التطور في المراحل الثلاثة يرتبط عضوياً بخيط فكري متين. وإذا قُيِّمَ بناءً على معايير المنهجية الحديثة فإنه يُظْهِر منهجاً علمياً منظماً. فالمادة اللغوية قد جمعت من مظانها (القرآن والسنة والاشعار وحكم العرب والأعراب ومقولاتهم) وهذه المصادر تمثل العقل الجمعي خير تمثيل. ويدل الترتيب (أي جمع ثم تدوين موضوعي فتدوين معجمي) على مدى وعي اللغويين العرب خاصة بفكرة الحقل الدلالي *semantic field* التي قال بها اللغويون المعاصرون وسبق بها لغويو الأمة في الترتيب الموضوعي. ويكفي برهاناً على عظمة العبقرية العربية منهجياً أن الخليل بن أحمد فعل ما يعجز عنه المحدثون في إحصاء واستقصاء اللغة.

---

[26] الطرابلسي، أمجد. **نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب**، دمشق: مكتبة الفتح 1982م، ص 12.

وبالإضافة إلى المنهجية الخاصة التي ابتدعها اللغويون في جمع اللغة وكتابة المعاجم، فإنهم تأثروا في المراحل التالية من مراحل التأليف في علوم اللغة بفروعها المختلفة في مناهجهم بمنهجية علوم الحديث. يقول السيوطي في مقدمة المزهر: " هذا علم شريف، ابتكرت ترتيبه، واخترعت تنويعه وتبويبه، وذلك في علوم اللغة وأنواعها، وشروط أدائها وسماعها، حاكيت به علوم الحديث في التقاسيم والأنواع."[27]

ومن المناهج التي استخدمها اللغويون العرب يومئذٍ: المنهج النقلي، والمنهج العقلي، والمنهج المعياري، والمنهج المقارن، والمنهج التكاملي.[28]

التأصيل العقدي

إن بعضاً من مفاهيم علم اللغة التي قال بها بعض قدماء اللغويين العرب والتي وجدت طريقاً إلى الفكر اللغوي القديم ما هي إلا نتاج للتأثر بالتيارات الفكرية الوثنية التي انتقلت إلى العربية عن طريق الترجمة أو رَوَّجَ لها علماء عرب أُعْجِبوا بالفكر اليوناني القديم.

وقد وفدت في عصرنا الحاضر -نتيجة للاحتكاك بالغرب- بعض من المفاهيم والمقولات الحديثة التي تتعارض مع مبادئ الدين والفهم الإسلامي. ومن المؤسف أن كبار اللغويين العرب ظلوا يرددون ذات المقولات الغربية العلمانية بوعي، أو بدون وعي. ومثال ذلك نشأة الكلام عند الإنسان وبدايته.

إن هذه القضية -أي قضية نشأة اللغة- تعدّ من القضايا التي ذهب فيها علماء اللغة العرب -قديماً وحديثاً- مذاهب شتى. ولهم فيها تأويلات متباينة. لقد انقسم اللغويون الرواد أنفسهم، في هذه القضية، إلى فريقين: فريق يرى أنها توقيفية، ويتزعمه ابن فارس (ت 395هـ). ويستدل بقوله تعالى "وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ

---

27 السيوطي، المزهر في علوم العربية وأنواعها، بيروت: المكتبة العصرية، 1986م.

28 عبد الله، عبد الصمد. "مناهج الدراسات اللغوية " بحث قدم في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا 8 /12 /1997م.

هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ" (البقرة: 31). فالله سبحانه وتعالى ألهم آدم عليه السلام أسماء المسميات كلها. قال ابن عباس: علمه اسم كل شيء حتى القصعة والمغرفة.[29]

أما الفريق الآخر الذي يتزعمه ابن جني (ت 392 هـ) فيرى أنها من صنع الإنسان، وأنها تطورت من محاكاة لأصوات الطبيعة إلى أن وصلت إلى مرحلة النضج. إن هذا المنحى من التفكير الذي قال به ابن جني ربما كان نتيجة لإطلاعه على الفكر اللاتيني؛ إذ أنه رومي الأصل.

والذي ذهب إليه ابن جني نفسه يقول به علماء اللغة المحدثون؛ إذ ادعى بعضهم أن اللغة "نشأت من تقليد أصوات الحيوان والجماد وارتكاس للرسوم والحركات، إنها بحسب زعمهم بدأت بالرسم الدال على العمل، إما بالحركة، أو بالآلة المستعملة، أو بصورة الهدف الذي يُسعى إليه، ثم انتقل هذا الرسم التعبيري إلى الحروف الرمزية، فنشأ هذا الحرف الدال على المفاهيم بالتدريج."[30]

ويردد لغويون عرب محدثون مقولة فندريس الذي يرى: أن اللغة لم تولد "كحدث اجتماعي إلا يوم أن وصل العقل الإنساني إلى درجة من النمو تسمح له باستعمالها."[31] ولما عجزت معايير العقل الغربي في الوصول إلى نتيجة في هذا الموضوع، طالب بعضهم بعدم البحث في هذه القضية وأوصت بذلك الجمعية اللغوية الفرنسية في عام 1878م، معللين لذلك بأن العلم لا يبحث إلا فيما تؤكده المادة المحسوسة، إذ ليس لإنسان أن يصل في هذا الموضوع إلى نتيجة يطمئن إليها المنهج العلمي. وجلي أن هذا يتعارض مع الفهم الإسلامي الذي يجعل الوحي المصدر الأول للمعرفة.

إن مقولة ابن جني ومن حذا حذوه من المحدثين تتعارض مع الفهم الإسلامي الذي يمثله ابن فارس. فإنا كمسلمين، نهتدي بالوحي، نسلم: أن آدم أبا البشر، وبه بدأ الخلق. وأنه رسول من الله، أوحي إليه ليبلغ رسالة الله. ويستلزم الرسالة الوسيلة اللغوية وإلا فكيف يخاطب

---

29 الصابوني، محمد علي. **صفوة التفاسير**، بيروت: دار القرآن الكريم، 1981م، ج 1، ص 62.

30 ظبيان، نشأت محمد رضا. **علوم اللغة العربية في الآيات المعجزات**، بيروت: دار بن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، 1997، ص 9.

31 فندريس، مصدر سابق.

من أرسل إليهم؟ ويستحيل أن يكون آدم وذريته قد بدأوا محاكاة أصوات الطبيعة إلى أن نمت ملكة اللغة عندهم.

إن الله سبحانه وتعالى قد ألهم آدم اللغة مكتملة، ولكن أية لغة تلك التي أُلْهِمُها سيدنا آدم؟ يمكن أن يكون الجواب محور خلاف؛ إذ ليس مهماً أن تكون العربية أو السريانية أو أية لغة أخرى. فآدم عليه السلام قد ألهم لغة يبشر ويدعو بها ويتلو بها كتاب الله. ونتيجة لتفرق بني آدم في المعمورة، واختلاف الأقاليم التي قطنوها، نشأت عن اللغة الأولى لهجات ثم تطورت اللهجات إلى لغات. وصدق الحق حين قال "ومِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ واخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ" (الروم: 22).

إن القول بأن اللغة قد نشأت لاحقاً، وأن أعضاء الإنسان قد تطورت لتلائم وظيفته الجديدة ما هي إلا دارونية تتعارض مع ما ذهب إليه القرآن. فالله جل وعلا يؤكد في كتابه العزيز أنه قد خلق الإنسان في أحسن تقويم. وعبارة أحسن تقويم لا تعني تقويم البدن فقط، وانما تشمل تقويم كل ما يميز الإنسان عما عداه من الخلائق، ومن ذلك اللغة. يقول الله تعالى في محكم تنـــزيله:

- "ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ والأُنْثَى" (القيامة: 38 و39).
- "سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى" (الأعلى: 1).
- ".... أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً" (الكهف: 37).
- "ونَفْسٍ ومَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُوْرَهَا وتَقْوَاهَا" (الشمس: 7 و8).
- "الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ" (الإنفطار: 7).
- "ثُمَّ سَوَّاهُ ونَفَخَ فِيْهِ مِنْ رُوْحِهِ، وجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ والأَفْئِدَةَ قَلِيْلاً مَا تَشْكُرُوْنَ" (السجدة: 9).
- "...فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ونَفَخْتُ فِيْهِ مِنْ رُوْحِي فَقَعُوْا لَهُ سَاجِدِيْنَ" (الحجر: 29).
- "إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِيْنٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ونَفَخْتُ فِيْهِ مِنْ رُوْحِي فَقَعُوْا لَهُ سَاجِدِيْنَ" (ص: 71 و72).

جاء في اللسان تحت كلمة (سوَّى): وسَوَّيْتُ الشيءَ فاسْتَوَى أي اعتدل[32]. والاعتدال هو الاكتمال. وفي حالة خلق الإنسان فإنه يعني اكتمال بشريته. فهذا الاكتمال لم يتم في مراحل كما تشي بذلك مقولة من يعتقد أن النظام اللغوي للإنسان قد تكوَّن لاحقاً. كلا إن النظام اللغوي كما تؤكد تلك الآيات قد تم في لحظة استواء خلق الإنسان.

ويقول الصابوني في تفسر الآيتين 7 و9 من سورة الانفطار: "أي الذي أوجدك من العدم، فجعلك سوياً سالماً تسمع وتعقل وتبصر."[33]

إن هذا كله ليؤكد أن الإنسان قد خلق سوي الخلق وفي أحسن تقويم. وما كان ينبغي لعلماء اللغة من المسلمين أن ينجرفوا وراء ترهات علماء اللغة العلمانيين، ويسوقوا تأويلات باطلة تتعارض مع ما جاء به الوحي الذي يعتبر مصدر المعرفة الأول في الإسلام.

يشكل هذا النموذج الذي سقناه مثالاً لقراءة تأصيلية من هدى الوحي. وهذه القراءة النموذجية ليست شاملة؛ وإنما هنالك من الأدلة التأصيلية الكثير لمعرفة واحدة من قضايا علم اللغة. فليس العقل هو الفيصل الأوحد في قضايا العلم، وإنما الوحي أصل المعرفة والمرجع الفيصل في ما وراء حدود العقل. وهذه الرؤية لمفهوم التأصيل تنسجم مع الأفكار والنتائج التي توصلت إليها عمادة البحث العلمي والتأصيل الإسلامي بجامعة الإمام محمد بن سعود عندما قامت بمراجعة تجارب كليات العلوم الاجتماعية في مجال التأصيل. واقترحت العمادة عدة خطوات إجرائية عملية وذلك لتفعيل التأصيل منها:

- تشجيع المتخصصين على دراسة أفكار العلماء الأوائل من المسلمين ونظرياتهم للوقوف على الجذور الأولى للعديد من فروع العلوم الاجتماعية.
- وضع منهج عام لكتابة مدخل إسلامي للعلوم الاجتماعية.
- تحديد مجالات البحث في التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية.
- صياغة مفاهيم التأصيل في التراث الإسلامي ومناهجه.

---

32 اللسان، ج 14 ص 411.

33 الصابوني، مصدر سابق، ج 3، ص 828.

- القيام بتنقية مناهج التدريس مما يخالف التوجه الإسلامي.[34]

التجديد المنهجي

إن التجديد المنهجي الذي يعتبر جوهر القضية الفكرية المعاصرة، يرمي إلى ممارسة الاعتقاد السليم ويسعى إلى إصلاح حال المسلمين بغية أن تستعيد الأمة دورها الريادي.[35] كما يعني تعديل المنهج وتقويمه.

وتجديد منهج العربية يعنى إقامته على أسس علمية. ولئن كان العرب قد أسسوا منهجية علمية في البحث اللغوي، إلا أن هذه المنهجية قد ضوت في فترات ضعف الحضارة العربية. وفي هذا العصر فإن منهجية العربية وعلومها في حاجة إلى تلقيح من المنهجية العلمية الغربية المتقدمة في بحث وتعليم اللغات. والإصلاح المنهجي لا يكون بالأخذ من الغرب فقط؛ وإنما يعني أيضاً إحياء المناهج القديمة التي استخدمها اللغويون العرب. فالإصلاح المنهجي هو (تأصيل وتحديث في المنهجية).

إن الذي يقارن بين منهج اللغويين الغربيين والعرب، في الدرس والبحث اللغوي، ليدرك أن البون شاسعٌ بينهما في المحتوى والطريقة ؛ فبينما نجد أن جامعات الغرب تواكب متطلبات العصر، بل تتقدمه،نجد أن درسنا اللغوي ما هو إلا اجترار لما قال وعمل به الأولون، ناسين أن العصر اختلف، وأن ما صلح للأمس قد لايكون صالحاً لليوم. بل وإن مِنْ العاملين في مجال اللغويات العربية مَنْ يشكك في فائدة تطبيق مناهج وأفكار الدراسات اللغوية الحديثة على دراسة اللغة الفصحى؛ إذ يرون أن الأول ما ترك للآخر شيئاً وكم ترك الأول للآخر!

وهذا التقديس للقدم فرض قيوداً على الدرس اللغوي الحديث لا ينفك منها. ومن تلك القيود قضية ترتيب أبواب النحو العربي التي ما تزال كما قال بها الخليل. ولأن أبواب النحو لا تزال كما قال بها الخليل فما تزال توجد بعض أبوابٍ في النحو والصرف مهملةً في الاستعمال

---

34 عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، "تقرير عن جهود الجامعة في مجال التأصيل الإسلامي للعلوم الإجتماعية"، **مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية**، رجب 1413 هـ، ص 482

35 أبو سليمان، عبد الحميد. معارف الوحي: المنهجية والأداء، **مؤتمر علوم الشريعة في الجامعات**، عَمّان، 1994.

اليومي، تشغل حيزاً كبيراً في الدرس اللغوي كالتصغير الذي ما ورد في القرآن إلا لكلمة واحدة، تكررت في ثلاث آيات.[36] بل وبعض الكلمات التي هجرت في الاستعمال اللغوي ما زال مدرسو الصرف يتمسكون بها. وتمتلئ كتب الدرس النحوي بكثرة الشواذ المخالف للقاعدة، والإسراف في العوامل النحوية والتعليلات. ويبدو التمسك بالقديم جلياً حتى في الشواهد النحوية؛ فمعلمو النحو لايزالون يكررون قول صاحب الألفية:

ولا يَجُوزُ الابْتِدَا بِالنَّكِرَة مَا لَمْ تَفِدْ كَعِنْدَ زَيْدٍ نَمِرَة

حقاً لقد صدق فيهم قول من قال:

ما نرانا نقول إلا معاراً معاداً من قولنا مكروراً

وبعض الموضوعات اللغوية ذات الأهمية العملية القصوى لا تجد عناية مثل التعريب، واستيعاب كلمات جديدة من اللغات الأخرى وكيفية كتابتها. لذا ننادي بفتح باب الاجتهاد اللغوي؛ ولا نعض بالنواجز على قيود الأوائل. بل يجب أن نلقح موروثنا اللغوي بالمفيد من المنهجية الحديثة أنى وجدناها فالحكمة ضالة المؤمن.

إن الذي ينظر اليوم في واقع منهجية الدرس والبحث اللغويين، ليخلص إلى: أن اللغة اليوم تدرس دراسة علمية. ويُقْصَد بالدراسة العلمية: دراسة اللغة باتباع المنهج العلمي الذي يستعمل في دراسة العلوم الأخرى مثل: الكيمياء، والفيزياء، والحساب. وهذه الطريقة لا تقوم على العواطف ولا الأحكام المسبقة أو الإجحاف. فإذا قال شخص: بأن لغة ما لغة متخلفة، وأن لغته لغة متحضرة أو أن تلك اللغة لغة سهلة، وهذه لغة صعبة، فهذا الحكم غير علمي؛ لأنه قد بُني على عاطفة، و لم يُبْنَ على أسس علمية سليمة.

---

36 قال تعالى على لسان سيدنا يعقوب عليه السلام يخاطب ابنه يوسف عليه السلام " قال يا بُنَيَّ لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين " (يوسف: 5).

- وقال تعالى على لسان سيدنا نوح عليه السلام يرجو ابنه " وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بُنَيَّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين" (هود: 42).
- وقال تعالى على لسان سيدنا لقمان واعظاً ابنه "يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير" (لقمان: 16).

يقوم المنهج العلمي الحديث على أسس علمية منها: الملاحظة، والتجريب، والتحليل وبناء الفرضيات، واختبار تلك الفرضيات فهذه الوسائل هي التي تقود إلى فهم سليم وصادق، عكس العواطف التي تؤدي إلى حكم جائر وغير علمي. فالإنسان إذا كره شيئاً -وهذه عاطفة- فإن رأيه يكون سلبياً تجاه ذلك الشئ. وكذلك إذا أحب شيئاً فإنه يصدر حكماً إيجابياً نحوه.

فالمناهج العلمية الحديثة المستخدمة الآن في دراسة اللغة التي لا تنال حظها الكافي من الاهتمام والتطبيق عديدها منها: المنهج التاريخي المقارن، والمنهج الاستنباطي، والمنهج السلوكي، والمنهج البنيوي، والمنهج التجريبي.

يؤرخ لنشأة هذه المناهج الحديثة بالقرن الثامن عشر الميلادي. وهي مناهج تفسر اللغة من زوايا مختلفة ورغم تعددها، واختلاف مسمياتها قد تلتقي مع بعض أحياناً. وقد نشأ اللاحق منها نتيجة لنقص رآه اللاحق في السابق أو نتيجة لاختلاف الرؤية للغة. ولذا فهي تلتقي مع بعضها أحياناً.

إن الذي يطلع على مقررات أقسام اللغة العربية بالجامعات العربية والإسلامية، ليدرك أنها لا تزال تعول على المناهج القديمة فقط. ولا يزال المنهج التجريبي شيئاً غريباً يطبق في حدود ضيقة. ومثال ذلك علم الأصوات التجريبي الذي يدرس نظرياً وما ذلك إلا لافتقار معاهد التعليم للأجهزة والمختبرات اللغوية، أو لعدم إدراك الذين يقومون بتعليم هذه المادة لأهمية هذا الفرع من اللغويات. أما مادة الإحصاء التي تستخدم في تحليل البيانات واختبار الفرضيات فإنها لا تدرس في أي قسم من أقسام اللغة العربية، وكان يجب أن توضع ضمن مفردات مادة طرق التدريس التي تدرس بطريقة نقلية ليس فيها تجديد أو إبداع.

ومن يطلع على رسائل الدراسات العليا يجد أنها تتسم بالتكرار، وضعف المنهجية عموماً وانعدام المنهجية الحديثة. ورسائل تحليل الأخطاء خير شاهد على ذلك. إذ تتبع المنهج الكمي الذي ترصد فيه أعداد الأخطاء تنازلياً، ولا تعطي تفسيراً ذا قيمة لمدلول هذه الأرقام. وهذا عكس المنهج الكيفي، الذي يندر في الدراسات العليا. فالمنهج الإحصائي الكيفي يحلل، ويعلل تواتر الأرقام في أية حالة مدروسة ثم يعطي نتائج صادقة لقراءة المتغيرات. وهذا ما لا يقوم به المنهج الأول.

التجديد المعرفي

ثمة سؤال يُطرح هنا وهو هل قدمت المعرفة اللغوية عند العرب شيئاً؟

وقبل الإجابة على هذا السؤال نمهد له بقولنا: إن مصطلح علم اللغة مصطلح حديث؛ دخل اللغة العربية عن طريق الترجمة من الغرب، فالأقدمون منهم لم يعرفوا هذا المصطلح. وكان علم اللغة يعرف عندهم **بفقه اللغة**. وهو الفرع الذي يهتم باللغة العربية ما عدا الجانب الأدبي الذي ترك للأدباء والنقاد.

وتتشعب الدراسات اللغوية الحديثة إلى فرعين رئيسيين وهما: علم اللغة العام *general linguistics*، وعلم اللغة التطبيقي *applied linguistics* ؛ ولكل من هذين الفرعين فروع أخر تعنى بمجالات أخص من مجالات اللغة.

يتشعب علم اللغة العام إلى فروع عدة منها: علم النحو، وعلم الأصوات، وعلم المعاني وغيرها. فعلم النحو يبحث في تركيب الجملة وأنواعها. ويعرف بين اللغويين المحدثين، أحياناً، بالتراكيب *structure (syntax)* وهنالك من اللغويين العرب الذين سبحوا إلى مدى أبعد مع التيار الغربي من يطلق عليه علم (السنتاكس). ورغم أن اللغويين العرب قد استوفوا بناء النحو العربي، إلا أن هنالك كثيراً من المحدثين الذين حاولوا إقحام قضايا لغوية حديثة ظانين أنهم بذلك يحسنون صنعاً؛ ويكملون ما توهموه نقصاً في نحونا العربي. إلا أنهم جاءوا بقضايا لا تمت إلى المنطق اللغوي العربي بصلة. ومن ذلك قضية النحو التوليدي *generative grammar* التي يشكك فيها كثير من علماء اللغة.

إن علم المعاني *semantics* هو الحقل الذي تدرس فيه العلاقة بين الكلمة المكتوبة أو المنطوقة وما تدل عليه الكلمة أي معنى الكلمة *word meaning*. وتدرس كذلك التطور التاريخي للكلمة، أي ماذا كان معناها قديماً؟ وماذا صار معناها الآن؟ والأسباب التي أدت إلى تغيير الدلالة. وهذا المجال قد عرفه العرب قبل غيرهم. وتحفل المكتبة العربية بالكثير من مؤلفات علم المعاني والبلاغة، ورغم ذلك فإن بعضاً من اللغويين العرب يلجأون إلى المؤلفات الغربية في هذا الشأن.

أما مجال علم اللغة التاريخي*historical linguistics* فهو البحث في تطور اللغات وتكون اللهجات والأسر اللغوية والعلاقة بين اللغات. وهذا المجال قد سبق إليه العرب حيث تحدثوا عن التطور الدلالي ونشأة اللغات.

قصارى القول: إن العربية غنية في ميدان علم اللغة العام (الأصوات والصرف والمعاني). وهذه الأفرع من المعرفة اللغوية هي التي بدأ بها العرب علومهم. غير أن مَنْ ينظر تارة أخرى في المعرفتين: العربية والغربية في مجال اللغويات ليدرك أن ثمة جديداً في حقل اللغويات يعوز علم اللغة العربية، وأن ثمة عتيقاً عربياً أصيلاً عفا عليه الزمن، تلوكه الألسنة، فهو متخلف عن ركب الزمان يجب أن يُتخلى عنه. وليس من ضير لعلم اللغة أن يتواصل مع الغير، ودون أن يتعارض هذا التواصل مع مبادئ الدين الحنيف.

ويعتبر علم اللغة التطبيقي من أكثر المجالات اللغوية التي يحتاج العرب إلى تطويرها ومن ثم الارتقاء بدرسها مستفيدين من خبرة الأمم التي سبقتهم في هذا المضمار. وأوضح الأمثلة على ذلك علم اللغة الآلي *Computational Linguistics* الذي ازدهر في جامعات الغرب والمثال لذلك جامعة جورج تاون.[37] ويجمع هذا العلم بين الدراسات اللغوية النظرية (كعلم الأصوات والتراكيب وعلم المعاني) وعلوم الحاسوب مثل (الذكاء الاصطناعي، وتصميم النظم). وقد أنشئ هذا التخصص نتيجة لبحوث رائدة في الترجمة الآلية من اللغة الروسية إلى الإنجليزية.

وتمنح هذه الجامعة شهادة في تقنية المعلومات بعد أن يجتاز الدارس المقررات الدراسية المخصصة بنجاح مع إكمال التدريب الأساسي في علم اللغة الآلي. والمقررات هي:

- علم اللغة العام *general linguistics*.
- مقدمة في علم اللغة الآلي*Introduction to Computational Linguistic* .
- لغات البرمجة *Programming languagse*.
- الذكاء الاصطناعي *Artificial Intelligence*.

37

http://www.georgetown.edu/departments/linguistics/program/computational.htm.

- تطبيقات عملية في: الترجمة الآلية واسترجاع المعلومات وتلخيص النصوص وتحليل عملية الكلام.

وهذه الشهادة التي تقوم علي أساس نظري وتطبيقي تُعدُّ الدارسين للبحث ومواصلة الدراسة في هندسة النظم والمعلومات.[38]

ويُعَدُّ هذا المجال جسماً غريباً ومجهولاً في هيكل اللغويات العربية بالجامعات الإسلامية العربية. فإذا نظرنا في مقرر اللغويات في أقدم جامعة وهي الأزهر لا نجد في مقرراتها مادة واحدة في الحاسوب.[39] بل، وفي أحدث جامعة إسلامية في أكثر البلدان الإسلامية تطوراً في تقنية نظم المعلومات -أي ماليزيا- تحظى هذه المادة باهتمام ضئيل، لا يتعدى أن يكون مقدمة تعريفية فقط. وتخلو حتى المعاهد المتخصصة في اللغة العربية من هذا الفرع المهم من علم اللغة. ومثال ذلك معهد الخرطوم الدولي للغة العربية. فهذا المعهد الذي يتبع لأرفع مؤسسة عربية تربوية، وهي المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، إحدى منظمات جامعة الدول العربية، تخلو مناهجه من الدراسات الحاسوبية. ورغم أن الحاسوب صار مهماً في تدريس اللغات. ويستخدم في التعليم المباشر والتعليم مِنْ بُعْد فإن الجامعات العربية لا يوجد فيها أي برامج لغوية تقدم بمساعدة الحاسوب. بل ولا توجد دراسة عليا في الجامعات في استخدام الحاسوب في تدريس اللغة العربية*Computer Assisted Arabic Programme*.

لقد أدى عدم الاهتمام بدور علم اللغة الآلي وتقنية لمعلومات إلى ضآلة نظم وشبكات المعلومات العربية، وأدى كذلك إلى صعوبة البحث في شبكة المعلومات الدولية؛ ولذا فإن معظم المعارف الإسلامية والعربية تخزن بلغات أجنبية.

نعم، إن معظم المعلومات في شبكة المعلومات الدولية تعتمد على استعمال الحرف اللاتيني في البحث والتخزين. فاللغات ذات الحرف اللاتيني لا تجابه بإشكاليات كما تجابه اللغة العربية وتلك التي لا تستخدم الحرف اللاتيني كالصينية، والكورية، والعبرية. ولكن بعضاً من هذه

---

38 المرجع السابق.

39 أنظر موقع الأزهر في شبكة المعلومات الدولية:
http://www.frcu.eun.eg/www/universities/html/azhar.html

اللغات كاليابانية، والصينية، والكورية بل والعبرية قد قطع شوطاً كبيراً في التغلب على هذه الإشكاليات.

إن عدم اهتمام أقسام علم اللغة بعلم اللغة الآلي، ترك مجال نظم المعلومات للفنيين الذين يتأهلون من كليات: الهندسة ونظم المعلومات والأقسام الأخرى ذات الصلة بعلوم الحاسوب. وبما أنهم غير مؤهلين تأهلاً لُغَوياً عالياً فإنهم يقعون في أخطاء جسيمة عند تخزين المعلومات باللغة العربية. ويخطئون كذلك في إيجاد المقابل العربي المناسب للمصطلح الأجنبي.

هل من علم لغة إسلامي؟

لقد طرح هذا السؤال الذي يجسد أملاً محاولة لتجديد الفكر اللغوي العربي الإسلامي، ولإقامة بديل ذي لون إسلامي. وحقيق بنا أن نذكر في هذا المقام أن هذه المحاولة -أي التجديد- ليست طارئة في التفكير العربي فهي دعوة قديمة، وإن انطلقت من منطلقات مختلفة منها القومي ومنها الديني.

وهذه الدعوات -وإن اختلفت في غاياتها- فهي تتفق في مظهرها وآلياتها فالإصلاح في كل الدعوات شامل لكل أفرع اللغة من نحو، وصرف، وبلاغة. كما أنه نحو إصلاح منهج البحث والمحتوى بل وطريقة التقديم.

ففي مجال النحو[40] ظهرت دعوات قديمة تشكو من صعوبة النحو. يقول خلف الأحمر: "لما رأيت النحويين وأصحاب العربية أجمعين قد استعملوا التطويل وكثرة العلل وأغفلوا ما يحتاج إليه المتعلم المتبلغ في النحو من المختصر، والطرق العربية، والمأخذ الذي يخف على المبتدئ حفظه ويعمل فيه عقله، ويحيط به فهمه. فأمعنت النظر والفكر في كتاب أؤلفه، وأجمع فيه الأصول والأدوات والعوامل على أصول المبتدئين ليستغني به المتعلم عن التطويل، فعملت هذه الأوراق."[41]

---

[40] لقد خصصنا الحديث هنا عن إصلاح النحو فقط وما ذلك إلا لأن الشكوى من صعوبة النحو ومنذ القرن الثاني الهجري قد أسفرت عن اجتهادات لتيسيره بخلاف المجالات الأخرى.

[41] الأحمر، خلف، **مقدمة في النحو**، (ترجمة عز الدين التنوخي) دمشق: مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، 1961، ص 33.

ومن الذين نادوا بإصلاح النحو يومئذٍ أبو على الفارسي (ت 377 هـ) والذي علق على خلافه مع أبي الحسن الرماني (ت 374 هـ) بقوله "إن كان النحو ما يقوله الرماني فليس معنا منه شئ. وإن كان النحو ما نقوله نحن فليس معه منه شئ."[42] وتلا ذلك ثورة ابن مضاء القرطبي (1119-1195م) على المذهب النحوي التقليدي التي نادى فيها بإلغاء نظرية العامل، والقياس المنطقي، وإلغاء التمارين والتطبيقات الافتراضية.

وتلت تلك المحاولات في العصر الحديث اجتهادات عصرية محافظة بدأها إبراهيم مصطفي في كتابه "إحياء النحو"، وتلتها محاولات أخرى قام بها محدثون رأوا أن إشكالية النحو العربي وكل علوم العربية الأخرى من الممكن تذليلها. وذلك بتطبيق معطيات علم اللغة الحديث. وكان جورجي زيدان رائد هذه المدرسة. وقد حاول أن يعرض شيئاً مما تداوله اللغويون في الغرب عن اللغة وطرق تحليلها في كتابيه "الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية" و"اللغة كائن حي." وقد قام فعلاً بمحاولات أخرى لتذليل النحو العربي على نمط النظرية التوليدية التحويلية.[43]

وفي هذا العصر الذي انتظمت فيه الصحوة الإسلامية وتمددت، دعا بعض العاملين في حقل اللغويات ذوو النـــزعة الإسلامية بضرورة البحث عن بديل للعلوم اللغوية يقوم على معايير وقيم الإسلام؛ ليخدم قضايا الأمة، فظهرت دعوات إلى علم لغة شرعي[44] شبيهة بالدعوات التي تدعو إلى أدب إسلامي.

والمعروف بداهة أن العلم تراث بشري، وليس إنجازاً خاصاً بأمة معينة ومن يقول إن المعرفة بما وصلت إليه، قد صُنعتْ فقط في الغرب، ضلّ الحق، وظلم كثيراً من الأمم. فالتاريخ يثبت أن كل أمة من الأمم قد وضعت لبنة في بنية المعرفة. وأن المسلمين قد قاموا بوضع أعظم اللبنات في تاريخ العلم، غير أن الغرب الذي انتهت إليه السيادة العلمية الآن، قد فرض عقيدته،

---

42 السيوطي، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**.(تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم)، القاهرة: مطبعة عيسى بابي الحلبي، ط1، 2|181.

43 خليل، حلمي. **العربية وعلم اللغة البنيوي: دراسة في الفكر اللغوي العربي الحديث**، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1988م.

44 عبد السلام، أحمد شيخ. " نحو علم لغة شرعي: دراسة في المنهجية اللغوية للعلوم الشرعية"، **ندوة المنهجية في اللغة والأدب**، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، 7 / 2 / 1998م.

وفلسفته، وقيمه السائدة، على العلوم الإنسانية، فصارت" غريبة الفكرة والنظرة، بل التطبيق أيضاً فالأمثلة منتزعة من الغرب."[45]

ودخلت تلك العلوم إلى عالمنا الإسلامي، بما فيها من تناقض مع ديننا الحنيف. وقبلها المسلمون كما هي دون تبديل وتعديل. ودفعت هذه الحالة من التبعية الغيورين من علماء المسلمين إلى البحث عن بدائل إسلامية للعلوم الإنسانية والتي أثر فيها التفكير الغربي العلماني فظهرت مصطلحات: كعلم الاجتماع الإسلامي، وعلم الاقتصاد الإسلامي، وعلم النفس الإسلامي، والإعلام الإسلامي، وغيرها من النظم والمعارف.

إن القول بقيام علم لغة إسلامي صرف، يقيم بين المسلمين والآخرين سياجاً، مما يؤدي إلى عزلة، تحرم المسلمين من الاستفادة من معطيات الآخرين المفيدة؛ فالحكمة ضالة المؤمن، يأخذها أنى وجدها، فليس كل ما أتى به الغرب شراً. وكما يرى القرضاوي فيجب "أن تكون لنا (مدارس إسلامية) في هذه العلوم: المدرسة السلوكية في علم النفس، والمدرسة الإسلامية في علم الاجتماع، وهكذا....."[46] وحملاً على هذا، يفضل أن تكون لنا مدارس أو مداخل إسلامية إلى علوم اللغة وآدابها.

إن المدخل الإسلامي أو الإطار الإسلامي في علوم اللغة يجب أن يكون ذا هدف رسالي، يتخذ مصادر المعرفة الإسلامية مرجعية له، ويفسر الظواهر اللغوية بناء على القرآن والسنة مستفيداً من معطيات العلوم الإنسانية التي لا تتعارض مع العقيدة.

إن علم اللغة ذا التوجه الإسلامي يجب ألا يسير خلف علم اللغة علماني النـــزعة. أو يكون نسخة معربة له، ويردد مقولاته بلا وعي. إذ يجب أن تكون له شخصيته واهتماماته.

---

45 القرضاوي، يوسف. من تقديمه لكتاب (التفكر من المشاهدة الى الشهود: دراسة نفسية اسلامية)، تأليف د. مالك بدري، القاهرة: دار الوفاء، 1991، ص 12.

46 المصدر السابق، ص 12.

أهم قضايا علم اللغة ذي التوجه الإسلامي

وبعد فإن الدارس ذي النـــزعة الإسلامية ينبغي أن يهتم بأهم القضايا التي تمس حاضر ومستقبل الأمة وتخدم الدين. وهذه القضايا كثيرة. غير أن هذه الدراسة تشير إلى أبرزها وأهمها وهي، مثالاً لا حصراً:

العربية وعلوم الدين

ورد في توصيات مؤتمر علوم الشريعة الذي عقد في عَمَّان عام 1994 أن "العلاقة بين القرآن الكريم واللغة العربية، وما يتصل بهذه العلاقة من قضايا ذات أهمية بالغة في فهم القرآن الكريم وتطوير اللغة العربية وفقهها وتوضيح العلاقة بين إطلاقية القرآن ونسبية اللغة العربية."[47]

فالعربية ترتبط بعلوم الدين ارتباط توحد، بحيث لا فكاك منها. ويقول ابن خلدون عن العلاقة بين العلوم اللغوية وعلوم الدين " وأصناف هذه العلوم النقلية كثيرة، لأن المكلف يجب عليه أن يعرف أحكام الله تعالى المفروضة عليه، وعلى أبناء جنسه، وهي مأخوذة من الكتاب والسنة فلا بد من النظر في الكتاب ببيان ألفاظه أولاً، وهذا هو علم التفسير. ثم بإسناده إلى النبي صلى الله عليه وسلم الذي جاء به من عند الله سبحانه، واختلاف روايات القراء في قراءته، وهذا هو علم القراءات. ثم بإسناد السنة إلى صاحبها، والكلام في الرواة الناقلين لها، ومعرفة أحوالهم، وعدالتهم، ليقع الوثوق بأخبارهم بعلم ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك، وهذه هي علوم الحديث. ثم لا بد من استنباط هذه الحكام من أصولها من وجه قانوني يفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط، وهذا هو أصول الفقه. وبعد هذا تحصل الثمرة بمعرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين، وهذا هو الفقه.."[48]

ومن هذا يظهر أن للغة وعلومها واقعاً مركزياً في تأسيس برنامج تكاملي "لاستنباط الأحكام الشرعية المُعَالجة لقضايا الواقع الإنسان، واستكشاف الحقائق العلمية من النصوص القرآنية والحديثية، وتحليل النصوص التراثية المبينة لها، وربط الخصائص النظمية والأسلوبية

---

47 **بحوث مؤتمر علوم الشريعة في الجامعات الإسلامية.** تحرير د. فتحي حسن ملكاوي ود. محمد عبد الكريم أبو سل، عمان: جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية والمعهد العلمي للفكر الإسلامي، 1995م، ص 15.

48 المصدر السابق، ص 435 و436.

للخطاب الإسلامي بوجه عام بمناهجه في بيان السنن الكونية، وتقديم الحقائق العلمية ومخاطبة العقول، ونقل الأفكار، ومعالجة الأوضاع الإنسانية المتجددة."[49]

وإيمانا بهذا الارتباط أوجب الراغب الأصفهاني على مفسر كتاب الله أن يتقن عشرة علوم، منها علم اللغة، وعلم الاشتقاق، وعلم النحو، وعلم القراءات[50]، وأضاف السيوطي رحمه تعالى علوماً لغوية أخرى منها: علم التصريف، وعلم البيان، وعلم المعاني. فالمفسر الذي لا يتقن هذه العلوم يفسر بالرأي.[51]

إذن فالنظر في كتاب الله والحديث الشريف "لا بد أن تتقدمه العلوم اللسانية، لأنه متوقف عليها، وهي أصناف، فمنها علم اللغة وعلم النحو"[52] وحري به أيضاً أن يدرس علوماً عصرية أخرى لم يعاصرها السيوطي، ولا الأصفهاني، منها علوم لغوية، وأخرى غير لغوية. ومن الأولى: علم اللغة النفسي، وعلم اللغة الاجتماعي، وعلم الأسلوب، وتحليل الخطاب.

إن هذه النـــزعة التكاملية بين علوم الدين وعلوم اللغة ستقود إلى فهم عميق بمقاصد الخطاب الديني. وهذا الفهم العميق سيَرْفِد الأمة بعلماء جديرين بأن يقودوا حركة البعث الحضاري، وإحياء حركة الاجتهاد التي تعطلت منذ أزمان سحيقة.

ومن هنا ينبغي إقامة الدرس اللغوي العربي بما يخدم هذه العلاقة. وخروجاً من الإطار النظري إلى فضاء الواقع والتطبيق نجد أن علوم اللغة بصورتها الراهنة فيها كثير من الحشو والإطالة والتكلف وفيها ما لا فائدة منه مثل: الغريب والاستثناء والمهجور. مما يجعل تعلم العربية عسيراً. ولأن القرآن كلام الله، وما يُبْتغى من درس العربية وتعلمها هو فهم كلام الله فيجب أن نقيم العربية على ما جاء في كلام الله ورسوله.

---

49 عبد السلام، أحمد شيخ. "مناهج الدراسات اللغوية الحديثة وتوظيفها في التعامل مع نصوص الوحي" ورقة قدمت إلى الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، 1977.

50 مقدمة جامع التفاسير، ص 94 – 97.

51 السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، القاهرة، مصطفى البابي الخالبي، 1987م، ج 1، ص 181.

52 ابن خلدون، عبد الرحمن محمد. **المقدمة**، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1961م، ص 436.

الترجمة

إن الترجمة المنشودة ذات شقين، فهي نقل من العربية وإليها. فاللغة العربية ذات تراث علمي ضخم يتمثل في القرآن والتراث. وهي بهذه تشكل ثروة معرفية هائلة أسهمت وتسهم في الارتقاء بالعقل الإنساني عامة. وكثير من ذلك لا يتم إلا بواسطة الترجمة.

وإذا كان من الممكن ترجمة التراث إلى اللغات الأخرى فإنه من المستحيل ترجمة القرآن إلى أي لغة أخرى كما قال بذلك ابن تيميه. ولذا فإنه يجب ترجمة معانيه.

ولهذه الترجمة من العربية غاية تربوية، وأخرى دعوية. فالجمهور من المسلمين ليست العربية لسانهم. وكثير من علماء المسلمين نوه إلى أن علوم الشريعة الإسلامية لا يفهمها حق الفهم إلا من فهم اللغة العربية حق الفهم.[53] منهم: الإمام الشاطبي وابن قتيبة وابن تيميه.

والترجمة من اللغات الأخرى يجب أن توجه لترجمة منجزات العقل البشري في مجال التقنية والعلوم وأن يكون لهذه القِدْحُ المُعَلَى. ثم بعد ذلك يُهتم بالمفيد من هذه اللغات في الآداب والعلوم الإنسانية ويُترك الغث الزبد الذي يذهب جفاء.

ولذا ولفهم تعاليم الدين الإسلامي فهماً صحيحاً، ولنقل ثروات الأمم الأخرى في مجال العلوم وغيره، ينبغي أن تهتم المؤسسات التربوية بالارتقاء بدرس الترجمة وإنجاب تراجمة يجيدون العربية واللغات الأخرى المترجم إليها.

التعريب

إن تلقي المعرفة بلسان أجنبي ذو مثالب عديدة منها أن الاستيعاب لا يكون في مستوى حالة التلقي باللغة الأم. وقديماً فطن إلى ذلك علماء الأمة. يقول ابن خلدون "والأعجمي المتعلم للعلم في الملة الإسلامية يأخذ العلم بغير لسانه الذي سبق إليه ومن غير خطه الذي يعرف ملكته. فلهذا يكون ذلك حجاباً كما قلناه."[54] ويستمر قائلاً: "حتى إن طالب العلم من

---

53 العلواني، طه جابر. محاضرة بعنوان "عربية القرآن: لا دخيـــل في القرآن الكريم".(تلخيص وعرض عبد الله أحمد بن حمدي). المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 21 مايو 2001م، أنظر ذلك في:
http://iiit.org/Ar/conferences/QuranicArabic.htm

54 ابن خلدون، مصدر سابق، ص 1054.

أهل هذه الألسن (البربري والفارسي والرومي والإفرنج) إذا طلبه من أهل اللسان العربي ومن كتبهم جاء مقصراً في معارفه عن الغاية والتحصيل وما ذلك إلا من قبل اللسان."[55] فالإنسان الذي يفكر بلغته أكثر قدرة على الإبداع وصنع الحضارة وما يكن العربي مبدعاً فإنه سيبقى مستهلكاً للحضارة، عاجزاً عن صناعتها.

إن علم اللغة يجب أن يقود حركة التعريب. وذلك لاستعادة الهوية العربية وللقضاء على التخلف. ولن تفلح حركة تعريب لم تبن على أسس لغوية وعلمية. فحركة التعريب "جمدت عند توقف الاجتهاد اللغوي وانحسار العربية، وانغلاقها في قوالب محنطة."[56]

الخلاصة

من هذا العرض يتضح بجلاء خصوصية قراءة الوحي للغة العربية كما يتضح كذلك مدى أهمية القراءة الكونية لعلوم اللغة العربية. فقراءة العربية قراءة وحي هي قراءة للتأصيل في المنهجية وذلك لإحياء المنهجية التراثية التي من الممكن استخدامها في هذا العصر وتقديمها للعالم مرة أخرى في ثوب عصري. كما أنها إعادة لقراءة الواقع اللغوي وذلك لتنقيته من المؤثرات الفكرية المتعارضة مع مبادئ الدين الإسلامي الحنيف. وما ذلك إلا لأن اللغة في الواقع الإسلامي لا تدرس لذاتها، ولا لغاية دنيوية فقط وإنما تدرس كوسيلة لفهم العقيدة وفهم مقاصد الشرع ومن ثم تقديم الفهم الإسلامي الصائب حتى لا يكون العجز اللغوي عائقاً في فهم الإسلام.

أما القراءة الكونية فقد أظهرت مدى البون الشاسع بين الدرس اللغوي المعاصر الذي استفاد من معطيات التقنية وبين الدرس اللغوي العربي الذي ما زال محنطاً في منهجية بالية. وما زالت قضاياه لا تمت لهذا العصر بصلة. ومن هنا وجب استشراف منهجية عصرية وقضايا عصرية جديدة تستفيد من معطيات علم اللغة بصورتها المعاصرة وتستلهم من خلال قراءة الوحي مقاصد الإسلام وقيمه العليا في التوحيد والتزكية والعمران. والله الموفق وهو المستعان.

---

55 المصدر السابق، ص 1097.

56 الصيادي، محمد المنجي. " التعريب في الوطن العربي "، مؤتمر التعريب، بيروت: مركز دراسات الوحدة، 1986، ص 1097.

الإنسان بين شريعتين
رؤية قرآنية لمعرفة الذات ومعرفة الآخر

عبد الحميد أحمد أبو سليمان*

تمهيد

يولد الإنسان مزوداً بالعقل والإدراك الذي ميزه الله به عن سائر المخلوقات، وهو ذلك التميز الذي أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى "وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا" (البقرة:31) فليس المقصود -فيما أرى هنا- تعليم آدم منطوق أسماء الأشياء، فذلك مما لا يدل عليه تكوين الإنسان وقدرته كما فطره الله، ولأن معنى ذلك معرفة أسماء الأشياء التي لم يرها أبونا آدم في حالته الحضارية البدائية[1] إلى أن تقوم الساعة، وبكل اللغات، ووقوع ذلك على تلك الهيئة هو أمر ليس له أثر في تاريخ الإنسان ولا يوجد عليه دليل محسوس فيما يعرف من طبائع البشر وقدراتهم.

فإذا علمنا أيضاً أن منطوق الاسم لا معنى ولا قيمة له إذا لم يكن هناك وعي بمعناه وبدلالته، وهو العلم بطبيعة المسمى، وبكنهه، وبوظيفته، بشكل من الأشكال، فإن المعنى الممكن هنا لابد من أن ينصرف إلى قدرة الإنسان على الإدراك، وقدرته على تجريد المشتركات التي تضم المفردات، وردها إلى أصول وأجناس -وهو من الواضح في أصل خلق آدم حين سُوِّي ونفخت فيه الروح- فالكراسي أو المباني أو الحيوانات -على سبيل المثال- تتعدد أشكالاً وألواناً ومظاهر وتراكيب، ويختلف كل نوع واحد منها عن الآخر، إلا أنها في مجموعها ترجع إلى تشابهات وأبعاد تضم مفرداتها بعضها إلى بعض، وتجعلها في أجناس

---

* دكتوراه في العلوم السياسية ورئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي ورئيس مؤسسة تنمية الناشئة / الولايات المتحدة الأمريكية.

[1] نوعية إيمان أبينا آدم وصلته بالله هي قضية وجدانية لا علاقة لها بالقضية الحضارية الثقافية العمرانية المادية، ومن ذلك أن البدوي البسيط في الصحراء قد يكون أفضل إيماناً وأنقى سريرة ووجداناً من بعض العلماء المبرزين الملحدين المستكبرين في أرقى العواصم الحضارية العمرانية في العالم.

وأنواع، فهناك كرسي المكتب، وكرسي الاستقبال، وكرسي السيارة، وهناك الكرسي الكبير، والكرسي الصغير، وهناك الكرسي الخشبي، والكرسي المعدني، والكرسي البلاستيكي، وهناك أشكال وألوان وأحجام من الكراسي، لكن الذي يجمعها تحت هذا المسمى جميعاً أنها أداة للجلوس والراحة. وقدرة الإنسان على الإدراك والتمييز والتجريد هي أصل قدرة العلم والمعرفة عند الإنسان، وقدرته على توليد الأفكار والمبتكرات، وتوليد رموز أسمائها في اللغات الإنسانية المختلفة، وفي رأيي؛ فإن قدرة الإنسان على الإدراك، وقدرته اللغوية التي مكنته من إيجاد الرموز وإطلاقها على المسميات، وهي الأسماء، وقدرته على استخدامها، إنما هو أصل قدرة الإنسان الحضارية والعمرانية، ومن دون قدرة الإنسان على صياغة الرموز واستخدامها لم يكن باستطاعته الكتابة، ولا تطوير العلوم والمعارف، ولا الاستخلاف في الأرض، وإن ذلك هو المقصود بـــ (تعليم الأسماء) الذي أشار إليه القرآن الكريم، وميز الله به الإنسان.

ومن ضرورات العقل والإدراك اللذين ميَّـــز الله الإنسان بهما، ملكة التفكُّر والتدبر والبحث والنظر، وتوليد الأفكار، وتصميم إبداعات العمران، وإتقان الصنعة في حياته، واتخاذ دليل له في دروب الحياة، يعينه على فهم معنى الحياة، وتحمل أعبائها ومسئولياتها.

وكان لابد للعقل والإدراك الإنساني -على ما هو عليه من إدراك وتفكر- من أن يتساءل عن طبيعة ذاته، وعن معنى وجوده وعالمه والغاية منه، ويتساءل عن مصدر هذا الوجود وهذا العالم، وعن معنى مفرداته وعلاقاتها وتفاوتها، وعن طبيعة علاقاته بها وعن مصيره، ومصير عالمه. وهذا التساؤل في إدراك الإنسان وجوهر ضميره هو أساس الجانب الروحي في الإنسان، وهو مصدر الدين الذي يكوِّن جانباً أساسياً من حياته ومن تطلعاته، ومنه يتأتى ويصدر هذا التساؤل وهذا البحث الديني الفلسفي والضميري، ويأخذ بتلابيب كل فرد إنساني بشكل أو بآخر، وهذه القضية هي الإشكال الذي شغل المفكرين والفلاسفة -على مرِّ العصور- في مختلف أبعاده وغيبياته ومعمياته، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو ما جاءت بشأنه رسائل الأنبياء وبُعِث من أجله الرسل، وهو الأمر الذي تعرضت لقضاياه مختلف العقائد والأديان والفلسفات.

الوعي الإنساني: طبيعته وحدوده

لقد كان من الواضح -وما يزال -أن الإنسان- وهو الجزء المحدود بعقله ومنطقه وإدراكه- لا يستطيع أن يدرك الكلي والمطلق وغير المحدود، ومن هنا جاءت حاجة الإنسان إلى معالم تضيء له مجهولات دروب الحياة، وتهديه إلى غاياتها، وتبعث في نفسه الأمن والطمأنينة، وتفسر له، وتعرفه معنى وجوده، والغاية من هذا الوجود، ومآل هذا الوجود، والسبيل إلى التعامل معه وطلب السلامة في مآله، فكانت الأديان والرسالات والعقائد الغيبية -على مر العصور- هي مصدر هذه الهداية، ومنبع الأمن والطمأنينة، في هذا المجال، للنفس البشرية.

وعلى الرغم من إيمان البشر بما يتوارثونه ويؤمنون به من العقائد والأديان، فإن العقل الإنساني وما أودعه الله فيه من فطرة السعي نحو الفهم والإدراك والمعرفة؛ كان لا بد له من التساؤل والملاحظة ومحاولة الفهم العقلي حيال كل شيء، فإلى جانب الإيمان الوجداني كان البحث العقلي عن مصدر الوجود، ومعنى الوجود، وغاية الوجود، ومصير الوجود، في حدود إدراك العقل ومنطقه، وهي تساؤلات كانت محلّ عناية الفلسفة والفلاسفة.

والفلسفة بهذا المعنى إنما هي تعبير عن فطرة الإدراك المنطقي، وطلب المعرفة الحسية، فإذا أدرك الإنسان والمفكر والفيلسوف طبيعة هذه القضية حينما يتصدى لها، وأيقن محدودية منطقه وإدراكه الجزئي بشأنها؛ فإن البحث والتفكر يكون وسيلة إلى نور الممكن من المعرفة، وأداة موصلة إلى زيادة الطمأنينة والإيمان، وعندها لا تكون المعرفة العقلية مناقضةً للمعرفة والطمأنينة الإيمانية الوجدانية.

لقد كانت المعرفة الرشيدة عند الملائكة مدعاة للإيمان والطمأنينة؛ وذلك حينما تساءلوا -بحكم ما يعلمون من طبيعة الإنسان الملموسة في طوره الحيواني، قبل أن يسويه الله ويضيف إلى تكوينه الروح والعقل والعلم- عن قدراته وصفاته الحيوانية في الإفساد والظلم والعدوان، فكانت إجابة الخالق صاحب القدرة والعلم الكلي المطلق مدعاةً إلى طمأنتهم وتعزيز إيمانهم وتقبلهم، فقال تعالى: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ، وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي

بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ" (البقرة: 30-32) أما إبليس فقد غرّه علمه الجزئي وأعماه عن محدوديته ومحدودية إدراكه ومنطقه فكان ذلك سبباً في استكباره وكفره وضلاله، وهو حال كثير من "العلماء" الملحدين الذين أصبح علمهم الجزئي سبباً في ضلالهم وكفرهم واستكبارهم: "إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ، فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ، إِلا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ، قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ" (سورة ص: 71-76)[2] فَعِلْمُ إبليس أن مادة خلقه -وهي النار المدمرة- هي من نوع أرقى من مادة الطين المنحطة الخامدة التي خُلِقَ منا الإنسان أعماه عن محدوديته نسبة إلى علم الله المطلق، وحكمته وقدرته المطلقة، وبما سيميز الله به الإنسان من نور الروح والعقل والإدراك. فهو الذي وهب الإنسان الإدراك والمسئولية، وهو الذي جمع فيه الروح بتساميها إلى جانب الطين بانحطاطه، فبذلك العمى والاستكبار ضلّ إبليس وكفر.

ولذلك فالعلم الراشد المهتدي مدعاةٌ إلى التفكير والتدبر والطمأنينة والإيمان، وتساؤل الفطرة وبحثها وتنقيبها وتدبرها هو السبيل إلى الرشد وإدراك الحدود المؤدية إلى الاقتناع وطمأنينة الإيمان، وليس صحيحاً أن الجهل وعدم التفكر والتدبر هو السبيل الأفضل إلى الإيمان، كما أنه ليس صحيحاً أن البحث والنظر والتفكُّر والتدبر مدعاة إلى الكفر والإلحاد، فهذا لا يصح إلا في حالة من ضل عن ادراك ذاته، وغفل عن محدوديتها، وعمي عن إدراك محدودية علمه ومنطقه تجاه الكلي؛ الذي ينطق كل ما حول الإنسان دالاً على عظمته وقدرته، ودقة إحكام صنعته وخلقه، ولأن الجهل وعدم التفكر والتدبر -على أشكاله المختلفة- إذا أصبح إلغاءً للعقل والتفكر وتوليد الاقتناع، فإن ذلك في حقيقته رهب وهرب وضعف إيمان، لأن الإيمان صنو الثقة والاقتناع والطمأنينة، بحسب حال كل نفس وأحوالها ومعارفها وقدرات إدراكها؛ التي تتعلق في نهاية المطاف بإدراك عظمة الخالق ودقة صنعه وعدم محدودية قدرته، إلى جانب محدودية علم الإنسان ومنطقه. وهذا لا يتعارض مع أن ما

---

[2] انظر أيضا الآية: (الأعراف: 12-13).

يقع في دائرة معارف البدوي البسيط ومداركه، غير ما يقع في دائرة معارف العلماء والمفكرين في الحواضر ومداركهم، ولكنهم كلهم سواء في إدراك محدوديتهم ومحدودية منطقهم، وفي إدراكهم لعظمة الخالق والخلق.

إن تقدم العلوم والمعارف في طبائع الكائنات وآفاقها لا يزال يزداد ويتسع ويفتح مجالات أوسع لإدراك عظمة الخالق والخلق، ولا يمكن إلا أن تكون تلك الآفاق مجالاً للتأمل والتفكر الذي يولد المزيد من الاقتناعات، ويبعث الكثير من الطمأنينة في النفس، ويعمق الإيمان في الذات، دون أن يغير ذلك الأمر شيئاً من الثوابت المتعلقة بمحدودية الإنسان وإدراكه ومنطقه، وعظمة الخالق والخلق وخيرية غايته.

إن أهم حقيقة في عالم الإنسان هي وجوده، إلا أن منطقه الجزئي المحدود يحتم عدم وجوده أصلاً؛ لأنه لا شيء في منطق الإنسان وعالمه يوجد من دون سبب، ولا بد لهذا المنطق من أن ينتهي بالإنسان إلى أنه يجب ألا يوجد، فلا شيء يوجد في الإنسان الملموس المحسوس من لا شيء، وهذا يعني في منطقه حتمية عدم الوجود، ولكن الإنسان موجود، وتلك أول حقيقة وأهم حقيقة يعيها ويلمسها في ذاته وكيانه، وفي ذلك تعارض بين وجود ولا وجود، والإشكال يكمن هنا لا في الوجود؛ بل في محدودية منطق الإنسان، ومحدودية إدراكه. فالوجود لا يخضع لمنطق الإنسان، لكنه يخضع لمنطق أعلى من منطقه، وسوف يدرك ذلك ويعلم أبعاده وأبعاد منطقه حينما تنتهي رحلة حياته وامتحاناتها، وحينما ينتقل إلى العالم الأعلى الذي فيه: (ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)[3]، "بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ * أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ، وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ، وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ، وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ، رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ، كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ، وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ، أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ، وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ

[3] مسند الإمام أحمد، رقم الحديث، 10172.

حَبْلِ الْوَرِيدِ، إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ، مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ، وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ، وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ، وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ، لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ،(ق: 5- 22).

ولتوضيح هذه القضية فإننا نعلم أن مستوى ذكاء القطط، أو أي حيوان آخر، لا يجعلها قادرة على إدراك المعادلات الرياضية، وهذا لا يعني أن القطة غبية، وهذا لا يعني أيضاً أن المعادلات الرياضية التي لم تستطع القطط والحيوانات إدراكها لا وجود لها أصلاً، وإنما كل ما يعنيه هذا الأمر هو محدودية إدراك القطة أو سائر الحيوانات، ومحدودية إدراك منطقها، أياً كان مستوى هذا الإدراك أو ذلك المنطق، إذ من المؤكد أن المعادلات تخضع لإدراك ومنطق أعلى بكثير مما هو موجود لدى الحيوانات والقطط، وإن إنكار محدودية الخلق نسبة إلى الخالق هي من قِبَلِ إبليس –حين عصى– هو من باب الاستكبار القبيح الذي قد وقع في شراكه بعض البشر من أهل الكبر والإلحاد.

ومن الحقائق التي يعلمها الإنسان، ويعلمها المستكبرون من "العلماء" قبل سواهم، أنه كلما اكتشف الإنسان مستوى أعلى من المنطق رأى في الأمور ذاتها ما لم يره من قبل، فكثير من حقائق العلم وخواص المواد وطبائعها وطاقاتها وإمكاناتها وما تخبئه من الخصائص والإمكانات قد تغير في البعد الذري عما كان مقرراً في البعد الحسي، فلم تعد الجوامد ساكنة خامدة؛ بل كلما اشتد جمودها وكثافتها وحسُّ خمودها أصبحت حركتها الذرية أشد وأكبر، ولم تعد المادة في بُعْدِ انفجاراتها الذرية والهيدروجينية "لا تفنى ولا تستحدث" بل أصبحت المادة في هذه الأبعاد "تفنى وتستحدث"، كما أن ما كان يصعب تصوره من درجات الحرارة المرتفعة جداً حتى ولو أشعلنا غابات الأرض مجتمعة، أصبح ذلك ممكناً بكمٍّ قليلٍ من المواد المشعة، وكل هذا وأكثر منه في آفاق العلوم ما يدل على محدودية علم الإنسان ومحدودية منطقه وإدراكه قياساً بعلم الخالق القادر الحكيم المطلق المتبدي للإنسان في قدراته وإحكامه في خلق الكون بما لا يستطيع الإنسان معه أن ينكره أياً كان مستوى علمه ووعيه وإدراكه "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ، سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ

بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ" (فصلت: 52-53) ولقد فصلت في مقام آخر[4] بعض القضايا المتعلقة بأمر الإيمان ودواعيه التي ساعدتني على طلب الفكر والتأمل سبباً لطلب الحقيقة دون خوف أو وجل.

وبالإيمان الذي يتغلغل في أعماق النفس، ويهدي الفكر، ويسدد المسير، ويوجه السلوك، فإن يجب أن لا يتردد في مواجهة النفس بما يثور في خلجاتها من تساؤلات، وما يعصف بخواطرها من ملاحظات، لا تغير-مهما بلغت حيرة النفس تجاهها، واستعصى على العقل فهمها وإدراك الحكمة الكامنة وراءها- من القناعات الكية غنطلاقاً من إدراك النفس لعظمة الخالق، وإبداع صنعته، وقدرته وحكمته وحسن تدبيره للخلائق، وفي الوقت نفسه فإن ذلك يؤكد إدراك الإنسان التام لمحدوديته ومحدودية منطقه وعلمه، ولذلك فإنني لا أجد في تساؤلاتي ولا في تدبري ولا في حيرتي ما يتعارض مع إيماني بالله وبالرسالة وبالغيب، وأجد في التساؤل والبحث والتنقيب -بل وفي الحيرة- وسائلَ ودواعٍ لتعميق إيماني وثقتي بالله ويقيني بعظيم قدرته وعلمه وحكمته، وهو أمر يؤكد في الوقت نفسه إدراكي لعجزي وجهلي ومحدودية إدراكي ومنطقي.

وهذا المقال هو رغبة في إشراك القارئ في البحث عن إجابة عن بعض هذه الأسئلة والملاحظات الصعبة التي تدور بخلدي وخلد كثير من الناس وتستعصي على الإدراك والفهم والمنطق، وأظنني قد دفعت بتفكيري فيها إلى تحقيق خطوة أبعد ترضي في النفس فطرة طلب المعرفة والبحث عن الحقيقة بقدر ما وهبني الله من العقل والمنطق والإدراك وحسن الاستدلال.

شريعة الغاب

والسؤال موضع التفكر في هذه المقالة يتعلق بظاهرة استوقفت نظري وتأملي طويلاً وتساءلت عن معناها، وعن الحكمة الكامنة فيها، وهذه الظاهرة هي ظاهرة دورة الحياة، حيث يتحتم على بعض الكائنات لتبقى وتحفظ وجودها أن "تعتدي" وأن "تفترس" سواها،

---

[4] أبو سليمان، عبد الحميد. تأملات في ظاهرية ابن حزم وإعجاز الرسالة المحمدية. **التجديد**، عدد 2، فبراير 1998، الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا، ص 166-173.

وهو ما يسمى في القانون الغربي "قانون الغاب"، فالكواسر القوية من الحيوانات والدواب على مختلف أجناسها في البر والبحر والجو لا بد لها لكي تعيش من أن تفترس سواها ولاسيما الأضعف منها من الكائنات!! حيث لا بد للأسد من أن يفترس بقر الوحش، ولا بد للذئب من أن يفترس الغزال والحَمَل، ولا بد للثعلب من أن يفترس الأرنب، ولا بد للبازي من أن يفترس اليمام والحمام. وأما عن الإنسان فحدث ولا حرج، فكم من ألوف الغزلان والأرانب والحمام واليمام والبقر والخراف والدجاج يفترس الإنسان في حياته؟ وكم من البلايين "تفترس" الإنسانية منها كل عام؟

والسؤال هو لماذا يتحتم على كثير من هذه الكائنات بأشكال مختلفة أن تعيش وتبقى على افتراس سواها وإيلامه؟ وما أثار هذا التساؤل في نفسي صرخة رعب وألم لا أنساها أطلقها أرنب هجم عليه قط، فأطلق تلك الصرخة، وهو الحيوان الألوف الخجول الذي لا تكاد تسمع له صوتاً.

بالطبع سوف يخطر بالبال تلقائياً تفسير دورة الحياة وضرورة توازن الأنواع، وما في ذلك من إتقان وصنعة تخدم الإنسان، وتحفظ الحياة وتديمها، وهذه حكمة وإتقان مفهومان لنا فيما لو سلّمنا بضرورة ألا يكون التوازن إلا بنظام دورة الحياة على الأرض بالترتيب والتنظيم الذي نراه. ولكن السؤال يتعلق بقدرة الله غير المحدودة الذي لو شاء لأقام نظاماً وترتيباً آخر بتوازن يدوم دون افتراس ومعاناة وألم لهذه الكائنات العجماوات.

لم أملك إلا أن ألاحظ وأن أتساءل؟ ولم يكن من اليسير إدراك المعنى والحكمة الأشمل في ذلك، وحينما شاركت بعض الإخوة تلك الخاطرة وتأمل تلك الملحوظة وذلك التساؤل لاحظت خوفهم من السؤال والتساؤل، وتضمنت إجاباتهم الاعتباطية مقولات عن أهمية الألم، ودوره الضروري في بناء الحياة وتشكيلها، ولكنني بالطبع لم أفهم معنى الألم وضرورته في ما ينال الغزال من الألم بين فكّي ذئب في الصحراء، والحوت والسمك في ظلمات البحار، ولو شاء الله جلّت حكمته لكان الأمر على غير ذلك.

وأدركت حينها أن بعض الإخوة يخلطون بين الإيمان من ناحية، وتساؤلات طلب الفهم والإدراك من ناحية أخرى، وفي رأيي فإنه لا تعارض بينهما لأن الإيمان ينبثق من الكليات والتأملات، أما التساؤلات فإنها تنبعث من التفاصيل والجزئيات، فبغض النظر عن

نتيجة تساؤلي ومدى اهتدائي إلى معرفة المعنى التفصيلي أو معرفة معنى جزء بعينه عن الحياة والوجود، فإن ذلك لا يغير من إدراكي ولا من إيماني الكلي بقدرة الله وحكمته التي لا يتوجب أن يحيط بها دائماً إدراكي ومنطقي المحدود، ولكن ذلك في الوقت نفسه لا يلغي واجبي ورغبتي في النظر والتفكر والتدبر بقدر ما يهديني إليه إدراكي ومنطقي وتفكيري وعقلي؛ لأن في ذلك معرفة وتبصرة لي ما دام ذلك البحث والتأمل لا يشوبهما الكبر ولا الاستكبار.

وفضلاً عن ذلك فإن التفكر والتدبر هو الذي يهدي الإنسان إلى بلوغ أقصى مداركه، ويوسع سقف معارفه، وهو أداته لإدراك الوحي والرسالة وهديها في شئون حياته ومعاشه، وإن ذلك لا يعفيه من طلب التحقق ومن الفهم السليم. كما يجب أن يكون العقل المهتدي موضع الحرص والثقة والتكامل مع الوحي في فهم الشريعة والتشريع وإعمالهما في شئون الحياة كما أراد الله لهما ليكونا نوراً وهداية للعالمين. أما رفض إعمال العقل المسلم، وعدم الثقة به، والدعوة إلى المتابعة العمياء، والتنكر للبحث والنظر وفهم السنن والوقائع، فهو خلط بين الإيمان والاستكبار يقود إلى العجز والضلال.

وقد خفف من إحساسي بألم الحيرة والعجز عن إشباع فطرة طلب المعرفة وكشف مستور الحقائق أنني كنت أتصفح في أحد مؤلفات أحد الأئمة الأعلام وأظنه ابن قيم الجوزية -إن لم تخني الذاكرة- فوجدته قد أثار تساؤلاً شبيهاً بهذا التساؤل، وأجاب عنه إجابة قريبة مما استقر في نفسي، وهو أن الثقة بقدرة الله وحكمته، ومحدودية إدراكنا البشري، كل ذلك يجعلنا في النهاية -إذا لم نهتدِ إلى جواب محسوس أو معقول مقنع- نفوِّض الأمر لله ونحن على ثقة بحكمة بالغة فيه تخفى على منطقنا ومداركنا المحدودة القاصرة.

ورغم ذلك التخفيف بقي التساؤل قائماً في النفس دون جواب معقول مقنع، وإن كنت أعلم أنني قد لا أهتدي إلى حقيقته ووجه الحق فيه أبداً؛ لأنه ربما كان أبعد من قدرة إدراكي وحدود منطقي، ولكن ذلك لا يمنع العقل -بالطبع- من المراوحة حول ما لا يعتدي العقل إلىٰ فهمه كلما تعلق الأمر به، أو دار البحث بشأنه من قريب أو بعيد لعله يهتدي فيه إلى جوابٍ أفضل.

شريعة النور

وفي محاولة التفكر في الأمر رجعت إلى مصدر الغيبيات والكليات، وهو القرآن الكريم فقد يجد المتأمل من الإشارات والإيحاءات ما يلقي الضوء على بعض جوانب مثل هذه القضايا، وعلى بعض طبائع المخلوقات وتفسير بعض علاقاتها، وفيما يلي حصيلة هذه المحاولة لفهم هذه القضية وسبر غور بعض جوانبها.

فنحن نعلم أن النور والنار والطين هي أحوال وأشكال مختلفة للطاقة التي يبدو أن العلم الإنساني حتى اليوم لا يدرك كنهها، ومن الواضح في القرآن الكريم أن النار المدمرة المتأججة أعلى وأرقى درجة وحالةً من الطين الراكد الخامد، ولذلك استكبر إبليس المخلوق من نار وأبى أن يسجد لآدم المخلوق من طين "قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ" (الأعراف: 12).[5]

كما نجد القرآن الكريم يقرن النار دائماً بالضرر والعذاب "أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ" (البقرة: 221).[6]

وطبيعة النار تتصل بالنور، إلا أنها في حالة مدمرة، وقد تلقى إبليس -وهو من عالم الجنّ- أمر الله بالسجود لآدم، مثله في ذلك مثل الملائكة وحين عصى وتمرد غلبته الطبيعة التدميرية ونوازع الأذى لديه؛ فعصى أمر ربه، وإن الجن الذين هم من نار كان منهم المؤمنُ المطيعُ، كما أن منهم العاصي المستكبر. ولما كانت طبيعةُ إبليس طبيعةً ناريةً فإن تلك الطبيعة حين جنحت للعصيان تمردت واستكبرت عن أمر الله، واتجهت إلى الحقد على الإنسان، والإضرار به، وتوعُّده بالأذى، ودفعه إلى الضلال والخطيئة، ودفعه إلى الاتجاه الطيني المنحط وما ينجم عنه من أهواء قانون الغاب الحيواني وعنصريته وعدوانيته وشهواته.[7]

---

5 انظر أيضا الآيات: (الإسراء: 61)، (الرحمن: 14-15)، (الحجر: 33).

6 انظر أيضا الآيات: (البقرة: 257)، (الرعد: 35)، (الأعراف: 12).

7 انظر أيضا الآيات: (الإسراء: 62-65)، (الحجر: 39-43).

أما النور -وهو خير كله- فنجده صفة من صفات الله سبحانه وتعالى "اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ" (فاطر:24) ونجده صفة للحق والخير والهداية،[8] ووصف القمر المضيء والهادي بأنه نور، والشمسَ التي تبث الضياء والدفء -لا الأذى والدمار- بأنها ضياء وبأنها سراج،لا نار، نسبة إلى أثرها في حياة الإنسان؛ لأن الضوء والنور حالة للطاقة تعطي وتفيد دون تدمير، والسراج نار منيرة تبعث الضوء والنور، على عكس النار المدمرة، حتى إن نفعها لا يتأتى إلا من خلال طاقة التدمير والتحويل "هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا" (يونس: 5).[9]

أما الروح فهي من عند الله ومن أمره ونوره وهي تمثل جانب التسامي والكمال والخير في الإنسان، وتُنسَب إلى الله جل شأنه "ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ" (السجدة: 9).[10]

ومن الواضح أننا قد أصبحنا أمام ثلاثة عناصر هي: النور (والروح في الإنسان تُرَدُّ إليه)، والنار، والطين:

- فالنور من الله، وهو مصدر هداية للإنسان، ومنه نُفِخَتْ الروح في الإنسان.
- والنار متأججة مدمرة، ومنها خُلِقَ إبليس والجان.
- والطين راكد منحط القدر والمقام، ومنه خُلِقَ جسم الإنسان وجميع دواب الأرض.

والمهم في بحثنا هنا هو جسم الإنسان المصنوع هو وجميع دواب الأرض من التراب وما لاحظناه في طبع هذه الدواب من ضرورة افتراس بعضهم بعضاً من أجل البقاء واستمرار الحياة والحفاظ عليها.

وإذا نظرنا إلى الإنسان وجدناه الكائن الوحيد -بين ما يدبُّ على الأرض- الذي نفخت فيه الروح وهو بذلك الوحيد الذي تلتقي فيه الروح النورانية بالمادة الكثيفة المنحطة الطينية، وهو أيضاً الكائن الوحيد بين ما يدبُّ على الأرض الذي وُجِّه إليه نورُ وحي

---

8 انظر أيضا الآيات: (البقرة: 257)، (التغابن: 8)، (الشوري: 52).
9 انظر أيضا الآيات: (نوح: 16)، (الهمزة: 5-6)، (المعارج: 15-16).
10 انظر أيضا الآيات: (الحجر: 29)، (الإسراء: 85)، (النحل: 102)، (الشعراء: 193).

الشرائع الربانية النورانية لترشيد حياته وهدايته، على غير قانون الغاب الذي يحكم حياة الحيوان.

وإذا نظرنا إلى الإنسان وجدنا فيه جانب الإدراك والضمير والتسامي الذي يتعلق بالروح وشريعة النور جنباً إلى جنب مع الجسد وحاجاته المادية وما يتعلق به من الشهوات والسوءات والعورات التي تنـــزع بالإنسان إلى الطبيعة الطينية وشريعة الغاب الحيوانية الذي هو نَفْسٌ من نَفَسٍ، أي هو جسد من طين فيه حياة يميزها النَّفَس؛ ولذلك سُمِّيَتْ نَفْسٌ يشترك بهما في الحياة مع الإنسان، "كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ" (العنكبوت:57) إلا أن الإنسان يتميز بأن له روحاً "فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ" الحجر: 29)، والحيوان في الحياة كالإنسان؛ فهو جسد من طين له نَفْسٌ وحياة تبقى ما بقيت الحياة ولابد للحياة والتنفس من أن ينتهي، وللجسد من أن يموت ويفنى، ولكن لا روح له، ولا إدراك، ولا ضمير؛ وتحكمه شريعة الغاب والطين المنحطة، حيث "الحق للقوة"، على غير حال الإنسان الذي تحكمه شريعة النور والروح، حيث "القوة للحق" ولذلك فإن الله تعالى يقول عن النفس الحيوانية في الإنسان: "إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ" (يوسف: 35) ويقول سبحانه عن الذات الإنسانية بما فيها من روح وطين: "هَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ" (التوبة: 11-12) "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا" (الشمس: 7-8)[11] "فالحيوان يشترك مع الإنسان في الحياة؛ لكنه لا يشترك معه في الروح، ولذلك كاللذات الإنسانية تكوين وطبيعة وغاية وقانون يختلف كل الاختلاف عن تكوين الحيوان وطبيعته وغايته وقانونه، وإن اشتركاً في شيء منها، ففجور النفس مصدره فطري ويتعلق بالجانب الطيني الحيواني حيث الحق للقوة؛ وتقوى النفس مصدره فطري كذلك ويتعلق بالجانب النوراني الروحي حيث القوة للحق ودوافع الضمير.

وإذا نظرنا إلى الإنسان وجدنا فيه جانب الإدراك والضمير والتسامي الذي يتعلق بالروح وشريعة النور جنباً إلى جنب مع الجسد وحاجاته المادية وما يتعلق به من الشهوات والسوءات والعورات التي تنـــزع بالإنسان إلى الطبيعة الطينية وشريعة الغاب الحيوانية، فالنفس هنا بمعنى الذات الإنسانية تتكون من عنصرين هما: عنصر الروح النورانية، وعنصر

---

11 انظر أيضا الآيات: (الإنسان: 3)، (النازعات: 40).

النَّفْس (بسكون الفاء) من النَّفَس (بفتح الفاء) أي الحياة والجسد الطيني الذي يمثل عنصر الحاجات والنـــزعات والشهوات الحياتية الطينية ولذلك "زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ" (آل عمران: 14) وعلى الإنسان صاحب الروح ترشيد النفس الحيوانية "وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى" (النازعات:40).

ولو أمعنا النظر في حياة الإنسان وغاياتها لوجدناها تتعلق دائماً بالصراع بين تطلعات الروح وأشواقها من القيم والمبادئ، والجسد وشهواته وحاجاته مالم تسمُ بها قيم الحق والعدل والجمال، يقول الله تعالى في محكم كتابه باسطاً في آيات كثيرة طبيعة هذا الصراع وما تحكمه من غايات ومقاصد وقيم وضوابط: "الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ" (الملك: 2).[12]

وهكذا يوضح القرآن وشريعة النور أن الحياة الإنسانية صراع بين الروح والمبادئ والمعاني والقيم من ناحية، والمادة والهوى والشهوات من ناحية أخرى، حيث يلتقي التوجهان في ذات الإنسان وكينونته -خلال حياته الدنيوية- لقاءً فريداً، وينتهي هذا اللقاء إما إلى صفاء ونقاء وجنة وخلود أبدي في النعيم، وإما إلى ظلم وباطل وفساد وإحباط وخسران وعذاب وجحيم وشقاء مقيم "إن الأبرار لفي نعيم، وإن الفجار لفي جحيم" (الانفطار: 13-14).[13]

في ظل هذه الصورة وهذا الصراع بين الروح والتسامي، وبين المادة والانحطاط والشهوات، نرى معنى الصراع المادي، ومعنى دورة الحياة، وما تمثله من مظاهر انحطاط الطين، وما يمثله من التظالم والافتراس والعدوان، وما يلحق بذلك الصراع من شرائع الغاب الطينية العدوانية المنحطة؛ حيث يطغى جانب القوة على جانب الحق في حياة الدواب والإنسان الضال، بصفته مظهراً من مظاهر الوجود المادي، وطبيعة الوجود المادي المنحط، وما يمثل هذا الوجود من صراعات في نفس الإنسان بين الروح النورانية والحيوانية الطينية

---

[12] أنظر أيضا الآيات: (الانشقاق: 6)، (الإنسان: 3-6)، (المدثر: 40-47)، (المائدة: 91)، (المعارج: 29-35)، (المنافقون: 9)، (آل عمران: 14-15)، (المائدة: 32) (الفرقان: 68) (المدثر: 38-47) (الماعون: 1-7) (هود: 15-16) (فصلت: 46) (يوسف: 53).

[13] أنظر أيضا الآية : (الفجر: 27-30).

المادية، وبين التسامي والضلال، وما يجره الضلال من الإخلاد إلى الأرض، بعكس أشواق الروح وشريعة النور التي ترتقي بالنفس الإنسانية في معاني الحق والخير.

كما أن جوهر المادة في انحطاط طبعها يمكن أن يفسر لنا معاني رمزية الطهارة المادية والمعنوية ومطالبها في حياة الفرد وممارساته وعباداته؛ من طهارة ووضوء وغسل، ونظافة وستر وزينة، وذكر وبسملة عند الأكل، والتكبير عند الذبح، وعدم قتلِ أو صيدِ ما لا حاجة للإنسان إلى قتله أو صيده، ورعاية الدواب والرفق بها، والمحافظة على البيئة؛ بل لعله يفسر من بعض الوجوه كراهة بل تحريم أكل الحيوانات البرية المفترسة على الإنسان، والتي تشاركه الأرض، والمزودة بأدوات الافتراس، وهي الناب والمخلب، لأن أكلها فيما يبدو يجعل الإنسان ذا طبيعة افتراسية مركبة، مما يدخله في حلبة صراعات القوة الحيوانية، فيما هو أبعد من مجرد الاستجابة للحاجة المعيشية، ولعل أكل الإنسان وافتراس الحيوانات المفترسة لسواها من الحيوانات التي تشارك الإنسان اليابسة، ويتواصل وجوده وبيئته معها تجعل أكله لها يؤثر على سلوك الإنسان وطبيعته، ولعل ذلك بعض ما عنته الحكمة القائلة "قل لي ماذا تأكل أقلْ لك مَنْ أنتَ".

الفلسفة الداروينية

وهذا المنطلق والتصور يوضح فساد الفلسفة الداروينية الاجتماعية؛ التي هي في جوهرها فلسفة مادية ملحدة تنبني على فرضية ساذجة طفولية هي عشوائية الخلق، ولا ترى الإنسان إلا أنه حيوانٌ، أي طينٌ، خُلِقَ هملاً وتطور عشوائياً، ولذلك فلا موضع في هذه الفلسفة لروحانية الإنسان التي تميزه عما سواه من خلائق الأرض بما له من إدراكٍ وروحٍ وضميرٍ، وأن معنى الحياة الإنسانية في هذه الدنيا هو هذا اللقاء بين الروح والطين، وما يمثله ذلك من صراع بين الروح والمادة، وبين الخير والشر، وبين الحق والباطل، وبين النور والظلمة.[14]

---

[14] إن فساد منطق الداروينية الاجتماعية العشوائية الملحدة لا يعني بالضرورة أن ننكر أن خلق الإنسان لم يتم ماديا في تطور وانتقال من مرحلة إلى مرحلة إذا كان ذلك ما أراده الله له حتى سواه ونفخ فيه من روحه، بل إن القرآن الكريم فيه ما يشير إلى هذا التطور والانتقال من حال إلى حال حتى تمت تسوية الإنسان بشراً سوياً؛ يقول الله سبحانه وتعالى: "الذي أحسن كل شيءٍ خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل =

فالفلسفة الداروينية الاجتماعية هي الفلسفة التي يقوم عليها الفكر الغربي المعاصر بعد أن تنكر للمسيحية في نظرته للإنسان والحياة والوجود، والتي تتمثل في عبادة المادة والقوة، والغلبة والقهر والافتراس، وما في ذلك من تجاهل لجانب الروح في الإنسان، وإلغاء لجانب الحق والعدل والمسؤولية والنور، والذي يمثل ارتكاساً بالإنسان في طبيعة الطين المنحطة التي تمثلها شريعة الغاب والافتراس؛ بحيث أصبح الحق يعني الغلبة، ويكون للقوة، وأن البقاء للأصلح بمعنى الأقوى،وهو فكر تمكّن من الغرب ومَنْ قلّدهم وسار على دربهم. وفي الحقيقة فإن معاني الإنسانية والتراحم والتكافل والتسامي الإنساني فيما وراء الذات القومية العنصرية تتلاشى بصور مختلفة مع هذا الفكر لتحل محلها روح الحيوانية والقسوة، وتسود معها أبشع أنواع العنصرية العدوانية الاستعمارية التي عانت منها -على يد الغرب- شعوبُ الإنسانية أنواع الظلم والقهر، كما يفسر ظهور القومية في الفكر السياسي الأوروبي الحديث التي وصل الأمر والعنصرية بها حدِّ الإبادة في بعض الأحيان، كما حدث في الأمريكتين، وفي أفريقيا وأستراليا وبلاد الشرق الأقصى، وكما يحدث اليوم على أرض فلسطين.

إن شريعة الغاب هي شريعة الطين، وشريعة الافتراس، وشريعة الظلم، وشريعة العنصرية، وشريعة الاعتداء. أما شريعة النور كما جاءت بها الرسالات السماوية غير المحرفة فهي شريعة الحق، وشريعة العدل، وشريعة المسؤولية، وشريعة الإخاء والتراحم والتكافل،

- نسله من سلالة من ماءٍ مهين، ثمّ سواهُ ونفخ فيهِ من روحِهِ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون" (السجدة: 7-9) فمن الواضح - حسب منطوق هذه الآية وما تشير إليه بعض الحفريات والأبحاث العلمية - أن الله قدّر خلق الإنسان على مراحل ثلاث: اثنتان منها مراحل حيوية وحيوانية فيها حياة ولكن لا روح فيها، مرحلة بدء خلقه الأولية ثم مرحلة الارتقاء الحيوانية التناسلية ثم المرحلة الثالثة والأخيرة التي سوى الله فيها أبانا آدم إنساناً سوياً، ونفخ فيه من روحه، وهذه قضية في رأينا لا علاقة لها البتة بدعوى العشوائية الداروينية الساذجة، يقول الله تعالى "إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون" (يس: 82-83) أي إن إرادة الله سبحانه وتعالى تجري على الوجه الذي تعني حتمية النفاذ. وعلى هذا يوضح أن الإنسان ليس مجرد حيوان؛ بل هو كائن متميز بالروح التي تدفعه بما جبل عليه من العقل والإدراك والضمير، للتطلع نحو نور الحق ومصارعة شريعة الغاب العدوانية، وأيا كان ما يقرره البحث العلمي عن الهيئة التي خلق الله بها الإنسان؛ فهي مقبولة عند المؤمن لأن ذلك يعني أمر الله وإرادته، وعلى المسلم طلب العلم والمعرفة التي لا يمكن في نهاية المطاف أن تتعارض مع الوحي المنـــزل من عند الخالق عز وجل "سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبن لهم أنه الحق" (فصلت: 53) "قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الله الخلق" (العنكبوت:20).

وشريعة التقوى وحفظ الأرواح، وأداء الأمانات وإنصاف المظلوم، وعدم الإسراف والفساد، دون أي اعتبار ذاتي أو قومي أو عنصري، والقوة في هذه الشريعة للحق على عكس مقولة شريعة الغاب التي تجعل الحقَّ للقوة، ولا مجال في علاقات الشعوب في شريعة الغاب لمقولات الحقِّ والعدل لذاتها؛ ولكن بترتيب الحقوق، أو على الأصح المكاسب، بهدف التغالب وحلول الصراعات السياسية التي تقوم على قهر غلبة القوة، وما جرى للشعوب على يد الاستعمار، خاصة في أفريقيا وأمريكا، والذي ما يزال يجري على غراره بيد الصهيونية للشعب الفلسطيني الذي سُلبت أرضُه، وقُتِل شعبُه وشُرِّد، ودُمِّرَت بلاده؛ بدعمٍ من الغرب وسلاحه وسياساته؛ والذي يبقى شاهداً محسوساً ملموساً على قيم شريعة الغاب الغربية المادية الطينية ومفاهيمها القائمة على الظلم والعدوان والكيل بمكيالين، والتي جرَّت -ولا تزال تجرُّ- على الإنسانية حتى اليوم من مظالم وويلات وحروب، وبما طورته من أسلحة دمار شامل، وذلك على عكس قيم شريعة النور ومفاهيمها وأسسها في الحقِّ والعدل والرحمة والتكافل؛ فيكون الدرس المستفاد من هذه التأملات أن الإنسان يلتقي فيه سمو الروح والضمير كما يلتقي فيه انحطاط الشهوات والأهواء والطين، وإن الروح تدفعه نحو الحقِّ والعدل، بينما تدفعه حيوانيته الطينية نحو الشهوات والأهواء والظلم والعدوان، ولكلّ واحدٍ من هذين القطبين شريعته؛ فشريعة قطب الروح والنور الإلهي تجعل القوة للحق وتحضّ على الخير والعدل، أما شريعة الطين فحيوانية الغاب، وعدوانيته، وهي تجعل الحقَّ للقوة، وإن إنسان شريعة الغاب الطينية المادية يكون مجبولاً على الغلبة والعدوان والظلم.

ولذلك نجد الغرب حين انحرف عن شريعة النور وشوهها وأنكرها، وأخلد إلى الأرض خيَّم -عند ذلك على فكرِه- الضلالُ، فأنكرَ بذلك جانبَ الروح وقيمَ الروح وغاياتها، وتلبَّس حيوانية الطين المنحطة، وارتد إلى ظلمة الجاهلية، وأصبحت شريعتُه شريعةَ الغابِ الحيوانية العدوانية العنصرية الاستعمارية؛ التي تعطي الحقَّ للقوة، فانهارت في مجتمعاته الأخلاق، وفشا العنف والعنصرية، وفشت الفواحش وانهارت الأسرة، وأصبح لا مجال في تعاملاته مع الأمم الأخرى لاعتبارات الحقِّ والعدل، وإنما الاعتبار كل الاعتبار للقوة التي تفرض الأمر الواقع، لابقوة الحق، بل بحق القوة، وباسم دعاوى السياسة والحلول الوسط والأمر الواقع؛ والمصالح القومية، التي يفرضها منطق القوة، وأصبح التظالُم فكراً وسياسةً

ومهارةً، ولاموضع فيها -على الحقيقة- للحق والعدل، لأن دليل شريعة الغاب وغايتها هو القوة والمصالح القومية ومطامعها الأنانية، وقد وصف الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم الجاهليين الهمجيين أتباع شريعة الغاب، وهو ما تمثلته في هذا العصر ما اقترفته الشعوب الغربية من الممارسات الاستعمارية غير الإنسانية ضد شعوب آسيا وأفريقيا والأمريكتين، وهو عين ما نراه حتى اليوم من سياسات وممارسات الغرب ضد هذه الشعوب، ولاسيما ما يجري على مدى قرن من الزمان من الممارسات الاستعمارية الاستيطانية من قِبَلِ الصهيونية العنصرية المدفوعة والمدعومة أيضاً من قِبَلِ الغرب ضد الشعب الفلسطيني، والتي تهدف -وبوحشية فاشية حيوانية- إلى إبادة هذا الشعب؛ فقتلت منه مئات الألوف، وهجَّرت منه الملايين، وهي تعمل اليوم بوحشية غير مسبوقة على قتل من بقي منهم، وتهديم حياتهم، وإخراجهم من أرضهم وديارهم بمختلف الوسائل الدموية، دون أدنى مراعاة لأية عهود أو مواثيق دولية، أو لأي حقٍّ من حقوق الإنسان، والتي لانرى أنها تُحتَرَم على وجه الحقيقة إلا بشأن العنصر الغربي وأداته الصهيونية ورعايا دولهم ومصالحهم الاستعمارية التسلطية، يقول الله تعالى في وصف الجاهليين أتباع شريعة الغاب في عهد تنـــزيل الرسالة وفيما بعد عهد تنـــزيل الرسالة في سورة التوبة: "كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوْا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوْا فِيْكُمْ إِلاً ولا ذِمَّةً، يُرْضُوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوْبُهُمْ، وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُوْنَ" (التوبة: 8) إلا أنه يجب ألا يغيب عن البال أن هذا تقويم للثقافة والفكر والحضارة الغالبة والتوجه العام للغرب في العصر الحديث، الذي يرسم سياساته ويحدد توجهاته العنصرية الاستعمارية التي تبرر المظالم، وتدفع إليها، وتتقبلها بفجة وفجاجة، وتجعلها تكيل -بلا مبالاة- بكيلين، وليس تقويماً للأفراد ولا للفئات التي تتعدد اتجاهاتها وتختلف؛ لكنها في النهاية وإن تعددت واختلفت إلا أن حجمها وتأثيرها لا يغير من التوجه العام الغالب في المجتمع، وعلى الرغم من ذلك فإن بعض هؤلاء الأفراد وهذه الفئات التي ما تزال تتمسك بقيم النور يمكن أن تصبح في المستقبل بذوراً للإصلاح والهداية والخير.

إنه لا يمكن فهم العقلية الغربية المعاصرة وسياساتها النفعية التي تتسلط بها على الشعوب الضعيفة التي تكيل فيها لمصالحها الأنانية بأكثر من مكيال، كما لا يمكن أن يفهم لماذا نشأت وسادت فكرة القومية nationalism التي هي الوجه الآخر للتضامن العنصري الحيواني الذي ينطلق من منطلق القوة والغلبة وافتراس الآخر، في هذه الفترة من تاريخ

الغرب بالذات؛ الذي كانت القومية هي أحد معالمه الإيديولوجية البارزة، كما لا يمكن أن تفهم سيادة فكرة سياسات القوة power politics والسيطرة الاستعمارية التسلطية التي تلحق المبادئ بالأسلاب والمكاسب -التي تدعى المصالح- والتي تعرف في مجال الافتراس الدولي بالمصالح القومية، كما لا يفهم هوس الغرب بالتسلح واحتكاره وتطوير أسلحة الدمار الشامل وفرض السياسات والمصالح الظالمة وإعاقة نموِّ الشعوب والعمل على استلابها واستلاب مواردها، والحيلولة دون تحررها الاقتصادي والثقافي، كل هذا لا يفهم إلا أن يُفهَمَ مدلول تخلي الغرب عن شرائع النور السماوية التي حُرِّفَتْ في دياناته، والتي تجعل -في أصلها غير المحرف- القوةَ للحقِّ، وتلحق المصالح والمكاسب بالمبادئ على عكس قانون افتراس الغاب الذي يجعل الحق للقوة، ويلحق المبادئ بالمكاسب والمصالح؛ فيغلب بذلك انحطاط الطين ونوازعه على سمو النور وأشواق الروح.

وحتى نفهم الأمور التي يصعب فهمها في فكر الغرب وسلوكه، وفي فكر المسلمين وسلوكهم، يجب علينا أن نفهم الشرائع التي يتبعها كل فريق، ونفهم توجهاته العقدية والمفاهيمية. فإغراق الغرب في المادية والنهم المادي، وجعله المادة غايته التي يلهث وراء الحصول عليها والاستمتاع بها، وإغراقه في الجانب الاستهلاكي الذي يبدو أنه غير قابل للشبع؛ لا يمكن فهمه انطلاقاً من المرتكز الديني المسيحي؛ بل من الممكن فهمه إذا ما تذكرنا أن الغرب قد تخلى عن روحانيته لأسباب تتعلق في بعض جوانبها بما أصاب أصل رسالة النور المسيحية -واليهودية من قبل كذلك- من تشويه وتحريف؛ ولذلك تلبَّس الغرب -في عمومه- شريعة الغاب وطبيعة الحيوان الطينية المنحطة، حيث المادة والحياة هي غاية السعي والوجود الحيواني، لا غاية ولا هدف ولا سعي فيما وراءهما "...أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُوْنَ" (الأعراف: 179) "...وَالَّذِيْنَ كَفَرُوْا يَتَمَتَّعُوْنَ وَيَأْكُلُوْنَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوَىً لَّهُمْ" (محمد: 12) فغابت في الغرب شريعة النور وأصبحت حاجات الحيوان المعيشية المادية هي الغاية، ولا غاية وراءها، وهكذا أصبح من الطبيعي وقد تخلى الغرب عن شرائع النور، ونظر إلى الإنسان على أنه حيوان، أن تصبح المادة والحاجات المعاشية غاية وجود الإنسان الغربي التي لا غاية له وراءها، و يوضح القرآن الكريم لنا حال ما انتهوا إليه وطبيعته وغاياته ومآله:

"وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ. سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ. مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي، وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ" (الأعراف: 175-178)[15].

أما بالنسبة للمسلمين الذين ما يزال ولاؤهم لشريعة النور؛ ورسالة الإسلام التي حفظها القرآن الكريم، ما تزال ساكنة ومستقرة في قلوبهم، وما تزال نفوسهم متمنية أن تجد القدرة على التلبس بها، فإن نفوسهم قد توزعت من ناحية بين ما يسكن في قلوبهم وضمائرهم، وبجعل المادة وسيلة لغاية خيِّرة أعظم تتمثل في السعي بالحق والعدل، وتجسيد ذلك في واقع الحياة، واستخدام الحياة والطين والمادة وسيلة إلى تحقيق معاني النور وقيمه وغاياته ومقاصده، وتجسيدها؛ فيسمو الإنسان بذاته وبالمادة وتكون المادة حينئذ وسيلة نورانية خيِّرة. ومن ناحية أخرى بين رغبتهم - على شاكلة فكر الغرب ومفاهيمه - في الحصول على الوفرة المادية المعيشية وما يصحبها من المتع والراحة، ولكن جهودهم بسبب غبش الرؤية بشأن المادة وسيلة أو غاية ما تزال تمنى سعيهم بالفشل، وما تزال شعوبهم لا تستجيب لهم، ولا تتحرك فيها كوامن العزم والطاقة.

ولو أننا فهمنا ذاتنا ومنطلقاتنا وبناء ضمائرنا، وعرفنا المفاهيم والمنطلقات التي تحرك وجداننا؛ لأدركنا أن الضمير المسلم لا يمكن أن يقبل بالمادة والحاجة المعاشية لتكون غاية له، ولذلك نجد المسلم على الرغم من غبشه العقدي والفكري، وعلى الرغم من إقباله على تقليد الغرب في سعيه وتعلقه بالمادة والحاجة المعاشية المادية غاية له؛ إلا أنه يظل غير مقتنع بأن المادة هي الغاية، ولا يمكن للأمة المسلمة أن تجعلها في أي يوم من الأيام غاية للحياة - وإن كان لابد منها للحاجة المعاشية- وذلك لأنها ليست أصلاً في عقيدة المسلم وضميره غاية وجوده، ولذلك كان الإنسان المسلم وسيظل فاتر العزم، مترددا في متابعة الغرب وتقليده، إذ لا قوة ولا عزم دون رؤية واضحة وغاية محددة.

---

[15] انظر ايضا الآيات: (الفرقان: 43-44) (محمد: 12-14) (الروم: 29-30) (الروم: 7-12) (الشورى: 20) (آل عمران: 178) (الكهف: 58-59) (مريم: 75-76) (لقمان: 23-24).

من الواضح هنا أن المسلم يجب أن يكون أكثر جدية في تعامله مع المادة والأخذ بأسبابها؛ لتحقيق قيم الخير وغاياته، وتجسيدها في رحلة الحياة، لأنه دون المادة لا يمكن تحقيق تلك الغايات، ولا تجسيد تلك المقاصد والقيم، والمادة حين تجسد معاني الخير والحق والجمال وشريعة النور فإنها تسمو وتصبح خيراً ونعمة ورقياً حسناً، أما إذا أصبحت غاية في حدِّ ذاتها، وأصبحت تجسيداً لغايات شريعة الغاب والظلم والعدوان والعنصرية والشرك والإلحاد فإنها تكون عند ذلك خداعاً وسراباً وهوىً وشهوات، يقول الله سبحانه وتعالى "وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ" (البقرة: 148).[16]

ويقول الله سبحانه وتعالى "وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ" (القصص: 77).[17]

فإذا أراد المسلم أن ينجح في السباق الحضاري للأمم فإنه لا بدَّ له من أن يفهم منطلقاته العقدية دون غبش، وأن يتعامل مع المادة والحاجة المعيشية بصفتها وسيلة من أجل تحقيق غايته الأبدية الكبرى في بناء حضارة الحق، وتجسيد مجتمع التعاون والعدل والفضيلة والتكافل الإنساني الصادق، وإلا فإنه لن ينجح في مسعاه في هذا السباق الأممي، ولن يفلح في بناء حضارة الحق، وتمكين شريعة النور، وتحقيق عيش الأتقياء القادرين الشرفاء.

عندما لا تعرف الأمم ولا يعرف قادتها مِنْ أهل الرأي الفكر ذواتهم، حقيقة وجهتهم وشرعتهم، فإن أمرهم حينذاك أشبه ما يكون بحال التائه في الصحراء؛ الذي لا يحدد لنفسه وجهة واحدة يسير في اتجاهها بقوة وعزم، لأن التوجه الحاسم الجازم في الصحراء -ضمن الظروف التي يمر بها غالباً- هو الذي يمثل الأمل الوحيد له في النجاة، حيث إن جلَّ من يهلكون في متاهات الصحارى هم من أولئك الذين لا يقررون لأنفسهم وجهة واحدة

---

16 انظر أيضاً الآيات: (النساء: 66) (سبأ: 13) (الصف: 3).

17 انظر أيضاً الآيات: (المزمل: 20) (البقرة: 215) (آل عمران: 30) (الإسراء:35) (البقرة: 172) (النحل: 114) (الأعراف: 32-33) (النازعات: 33) (إبراهيم: 32-33) (النازعات: 33) (لقمان: 20-21) (الشعراء: 73) (الأعراف: 31).

يمضون باتجاهها، ويظلون يغيرون وجهتهم، بسبب الحيرة والتردد بين وجهة وأخرى، حتى ينتهي بهم التيه إلى دوائر من الضياع والهلاك.

وإن عدم وضوح رؤية الأمة، وانبهار مثقفيها بالغرب وتقليده، دون فهم ما يقلدونه، ودون نقد جيِّده من رديئه، وطيّبه من خبيثه، مع حيرتهم وترددهم بين الأخذ بما لديهم أو الأخذ بما لدى الآخرين، من أهم أسباب فشلهم وتخلفهم؛ فهم لا يأخذون الحياة والسعي بقوة وعزم، وذلك هو أكبر المخاطر أمام الأمة ونهضتها، وأشدها إعاقةً لحركة الإصلاح فيها، لأنها تحول دون تفجير طاقاتها، وانطلاقها مسيرتها، وتحد من قدرتها، وتقف حجر عثرة أمام تمكينها من أداء رسالتها الإنسانية الخيِّرَة.

إن رسالة الإسلام السماوية مازالت كما وعد الله محفوظة -في القرآن الكريم وفي صحيح سنة رسوله الكريم ﷺ- غير محرفة، ومازالت الإنسانية في أشد الحاجة إلى هديها، بل إن الإنسانية اليوم بقواها الحيوانية المدمرة في أشد الحاجة من أي وقت مضى إلى هديها، مما يضع على كاهل الأمة الإسلامية مسؤولية أكبر من مجرد مسؤولية إصلاح أمرها واستعادة تمثُّلها لرسالة إسلامها، حتى تتحقق فيها مسؤولية إصلاح الحضارة الإنسانية واستنقاذ شعوبها من بين أنياب شريعة الغاب وما تحمله في طواياها من آفاق أبعد وأخطر من الفساد والدمار الذي إن تُرك دون مراجعة وإصلاح فإنه حتماً سيقود الإنسانية بروح حيوانية عنصرية عدوانية إلى الخراب والدمار، وما جرى في القرن العشرين، وما افتتحت به الصهيونيةُ والغربُ القرن الحادي والعشرين من الحروب، وما تنبئ عنه آفاقها، للمسلمين خاصة وللإنسانية عامة، هي نذير بالمخاطر العظمى التي يجب أن يتصدى لها عقلاء الأمم قبل فوات الأوان.

إن وضوح رؤية المسلم لطبيعته الإنسانية وما فيها من صراع بين الروح والطين، والنور والظلام، والحق والباطل، والعدل والظلم، ومن تربص إبليس، هو أمر أساس لإصلاح الذات، ومواجهة الغرب ومظالم شريعة الغاب، والتعامل الإيجابي الفعال معها، وطلب القدرة العلمية التكنولوجية، والتمكن منها، والعمل -في الوقت نفسه- بالتعاون مع كل عناصر الخير والسلام والأمن الإنساني على إقامة مجتمع دولي تسوده شريعة النور والحق

والعدل، لا شريعة الغاب العنصرية الظالمة؛ التي جرت الإنسانية إلى الحروب العالمية والإقليمية والمحلية المدمرة.

إن على المسلم وأتباع شرائع النور السماوية معرفة أنهم في مواجهة شريعة الغاب الحيوانية الطينية، وأن على أتباع شريعة النور إصلاح ذواتهم، واستنقاذ أنفسهم، واستنقاذ الإنسانية معهم.

إن خلاص الإنسانية التي تلغ اليوم في دمائها مخالب شريعة الغاب، وتمزقها أنياب قوى الغشم والتسلط الاستعماري وتتفجر فيها ردود الفعل العنيفة بسبب مظالم الروح العنصرية الحيوانية في السياسات الدولية للدول الغربية؛ لا يكون إلا بإدراك الدرك الحيواني الأسفل الذي انحدرت إليه الإنسانية المادية، وحتى يمكن أن تتنبه الإنسانية والحضارة لمخاطرها ومظالمها، وأن تعمل جاهدة من أجل أن تستعيد روحها، وقيم هذه الروح، وغاياتها، وتستبدل شريعةَ الحقِّ والعدل والنور بشريعة الغاب والظلم والفساد المرذولة وتتخلى عنها قبل أن تدمرها صراعاتها الدموية المادية الحيوانية، إن خلاص الإنسانية لا يكون إلا على أساس قيام مجتمع إنساني دولي حقيقي يقوم أساس فلسفة الإسلام في وحدة الإنسانية في دوائر متداخلة وليس على أساس القوميات والعرقيات وشريعة الغاب التي تجعل الأمم حيوانات متصارعة وحراب متقابلة.

لقد أنشأ الغرب الدراسات الاستشراقية بهدف فهم الشعوب الأخرى، إلا أن ذلك قد تم بروح قانون الغاب واستلاب تلك الشعوب، وفهمها بهدف افتراسها واستعمارها وقهر شعوبها وتسخيرها لأهوائه ومطامعه، ولعل هذه الشعوب ومفكريها ومثقفيها يكفُّون عما يمارسونه من العجز والتراخي، وعليهم أن ينشئوا في بلادهم الدراسات الغربية التي تكرس جهودها لدراسة الغرب والفكر الغربي، ودراسة طبيعته ومنطلقاته؛ حتى يمكن فهمه والتفاعل القادر معه، وتوجيهه وجهة خَيِّرةً لمصلحة شعوب الإنسانية كافة والتي تهددها سيادة نزعات شريعة الغاب العنصرية القومية العدوانية؛ بغض النظر عن أنواع التمويه والتدليس الدعائي الإعلامي المقصود به تضليل الجماهير، وتسهيل مهمة القهر والتسلط والاستلاب مِن قِبَلِ التجمعات والاتحادات القومية العنصرية الاستعمارية الكبرى التي اكتمل

هلالها الرهيب وأصبح يحيط بالأمة ويسيطر على مقدرات العالم الإسلامي والأفريقي، ويمزقهما أوصالاً.

وقد يتوهم بعض الناس أنّه يمكن بالوسائل الدعائية والدبلوماسية التي يمارسها الضعفاء إقناع الغرب بانتهاج سياسات عادلة متوازنة تكفُّ عنهم المظالم الاستعمارية والجرائم الصهيونية، لكنّ أي تأثير من هذا النوع هو استثناء ومحدود ووقتي لا يعتدُّ به، والأسلوب الوحيد الذي يمكن أن يكون له تأثير على سياسات هذه الدول بالوسائل السلمية في الوقت الحاضر هو الجهود السياسية للمواطنين المسلمين من أبناء الغرب نفسه ومن المؤمنين ببقايا النور في الرسالات السماوية، ومن يؤازرهم من المضطهدين وأصحابِ الضمائر الحية.

وإذا ما عرف المسلمون طريقهم، وإذا ما صدقت جهود الإصلاح، وصحَّت بها عزائمهم في الدعوة إلى الله في بلاد الغرب فلعل ما بقي في النفوس من الفطرات السليمة يعين على إعادة هذه الشعوب إلى طريق النور والعدل، وليس ذلك على الله بعزيز. ولا مخرج للعالم الإسلامي والأفريقي مستقبلاً حتى يحرر نفسه، ويسترد حقوقه وكرامته، ويسهم في عطاء الحضارة الإنسانية، إلا أن يقف على قدميه بقدرةٍ واقتدارٍ، ويكون نداً داعماً لقوى الخير والإصلاح.

إن موضوع دراسات الغرب وفهمه في غاية الخطورة ولا بد من البدء به دون أي تأخير. وقد بدأت الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا منذ سنوات بخطوة في هذا الاتجاه؛ وذلك بإنشاء تخصص جزئي Minor Specialization في الدراسات الغربية؛ بهدف بناء قسم وتخصص رئيس في الدراسات الغربية لفهم الغرب وفكره ومنطلقاته وطرق التفاعل الإيجابي معه نحو شراكة إنسانية عادلة تقوم على أسس الحق والعدل ومن منطلقات شريعة النور لا شريعة الغاب. والمأمولُ أن تُكتمل خطة عمل الجامعة وأن تحذو جامعات الدول الإسلامية والعالم الثالث حذو الجامعة الإسلامية العالمية وأن تنشئ المراكز العلمية والبحثية في مجال الدراسات الغربية لبناء أساس سليم وفعال لحوار الحضارات وتكاملها لا صراع الحضارات وتظالمها.

ولكن على المسلمين أن يتذكروا أن ما أضاعهم هو تضييع قيم الحرية والشورى والتسامح والإخاء الإسلامي، والإخاء الإنساني، وقيم حرية العقيدة والضمير والرأي،

وبالتالي ضياع حقوق الإنسان وكرامته، ليحل محلها قيم الاستبداد والجور والعنصرية والعرقية القبلية والشعوبية والطائفية، ولتغرق الأمة في أوحال التناحر والتظالم والتخلف. وإن على الأمة أن تعيد تأهيل ذاتها باستعادة قيم الحرية والشورى والتسامح والإخاء؛ حتى تتمكن من استعادة قدرتها ووحدتها واستقرارها؛ فتكون بذلك الرائد والقائد إلى الخير والسلام.

التقاء الروح والمادة

أما لماذا التقى عالما الروح والمادة في الإنسان؟ وما دلالة هذا الصراع بينهما والذي يرتقي به بعضهم -بما كسبت أيدي العاملين- إلى أمان الصفاء الروحي والنعيم الأبدي، فيما ينحط به بعضهم الآخر -بما كسبت أيدي المجرمين- إلى الشقاء والعذاب المقيم؟ وما دلالة هذا الصراع الذي به تكدح الأرواح في صراعها مع الأهواء والشهوات؟ كل هذه الأسئلة لا تسهل الإجابة عنها، ولكننا نعلم أنه من خلال هذا الكدح تُعَبِّدُ النفوسُ ذواتها، فتهتديَ بالنور إلى الحق. إن الإنسان وهو النفس المخلوقة لا يمكنه أن يكون قادراً -بشكل مستقل- على أن يقطع مفازة الحياة، ويدرك غاياتها، دون تبصير وهداية على حمل مسئوليته وتحقيق غاية وجوده، وهو أمر يحسّه الإنسان في دخيلة وعيه وصميم ذاته، وعليه أن يجعل حمل مسؤوليته الخيِّرة غاية حياته، وهمها الأكبر.

كل هذه أسئلة لابد من أن تخطر بشكل واع أو بشكل غير واع في ذهن الإنسان، وأن يراوح التفكير فيها. وعلى الرغم من أن مثل تلك القضايا تبدو أبعد من إدراك منطقنا البشري ومع ذلك فإنه يبدو أنه يمكننا أن نتبين بعض المعاني ذات الدلالة في لقاء الروح والنور مع المادة والطين، في كيان الإنسان، والغاية منه، وهو ما يجعل الإنسان ذاته ساحةَ الصراع بين النور والظلمة، وبين الخير والشر، وبين الروح والمادة. فنرى من خلال هذا اللقاء والصراع والتدافع كيف يتجسم النور والحق والعدل في المادة الطينية، وكيف يجسِّمُ الطين معاني الخير والحق والجمال ويبرزها في صور مادية طينية، ونرى بذلك معاني النور والحق والعدل والرحمة تتجسد حقيقة مادية، وكيف أن المادة والطين يتساميان بتلبس معاني النور والحق والعدل والجمال، وتجسيدها في حياة الناس وممارساتهم في صور حية مادية.

إلى جانب صور الخير المحسوسة الملموسة لهذا اللقاء بين النور والروح والطين لا بأس من الإشارة إلى بُعْد الجمال في الحياة الإنسانية الذي يتحقق من خلال لقاء الروح والمادة فيما نشاهده من ألوان الجمال حين يتجسد الجمال في المادة الطينية فيحيل المادة والطين الخامد المهين ليصبح أجساماً وأشكالاً وألواناً وزهوراً وطيوراً وحدائق وجنات، ومن ذلك جمال الإنسان ذاته الذي يمثل ساحة من أروع ساحات هذا اللقاء بين النور والطين؛ فأجمل الأجسام، وأجمل القسمات وأجمل الأحداق إنما هي في جوهرها معانٍ وخطوطٌ ودلالاتٌ تحققت حينما ارتسمت وتجسَّدت في المادة الطينية المنحطة، فيأخذ الجمال وأشواقه ومعانيه بالألباب، ولو أمعنا النظر ودققنا في تلك الصور والمجسمات والأجسام والحدقات الجميلة؛ لأدركنا أنها معانٍ ما كان لنا أن ندركها لولا أنها تجسدت في المادة والطين، على الرغم من أن الطين مادة مهينة تتبدى حقيقتها حينما تتحلل وتذوب، أو حينما تصبح الأجسام جيفاً كريهة، وترجع طيناً من حمأ مسنون، وتنمحي عنها خطوط الجمال وتفارقها؛ لتصبح قطعاً من طين عفنٍ، وحفناً من ترابٍ مهينٍ، فما أروع الطين حين يلتقي بالنور ويجسد معانيه في الخير والجمال، وما أروع النور وهو يتبدى من خلال المادة والطين.

خاتمة

ليست هذه التأملات في معاني الخلق وغاياته وغايات علاقاته في تصوري من باب فلسفة الإلهيات التي تخوض بالظنون في عالم ما وراء المادة دون مرشد ولا دليل غير دليل استكبار العقل وعدم معرفة حدوده، وهو ما عانت وما تزال تعاني منه الأمة والإنسانية حتى اليوم، وما يكون قد عناه الإمام أبو حامد الغزالي في "تهافت الفلاسفة" وما تلمسه في ضلال الضالين وإلحاد الملحدين ومكابرة الجاهليين.

فالتأمل المنضبط بإدراك حدود العقل ومنطق الإنسان هو في تصوري من باب جدية التدين، ومن سُبُل ترسيخ الإيمان، ولعل ذلك ما قصد إليه ابن رشد في "تهافت التهافت"، وضرورة سعي العقل بالتفكر والتأمل، وترسيخ الإيمان، وفهم الرسالة، وتوسيع آفاق العلم والمعرفة وتعميقها، وعلى كل حال فإن كتاب النور المنـــزل هو مصدر هذه التأملات، وهدايته غايتها والقصد منها، يقول الله تعالى: "قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي" (البقرة: 260).

وأرجو أن أكون قد وُفِّقْتُ في هذه الورقة إلى توضيح طبيعة الأمة المسلمة وطبيعة غاياتها ووجهتها وشرعتها، وأهمية جهودها في سبيل إسلامية المعرفة ووحدتها واهتدائها بثوابت شريعة النور التي هي حقيقة موضوعية في الوجود، وتقوم على أساس التوحيد ووحدة الإنسان، وتجعل القوة للحق. وأن أكون قد قدمت ما يعين على فهم الغرب المعاصر، لفكره ووجهته وغاياته، وبسياساته التي تنبني على شريعة الغاب وتقوم على أساس التمايز وتعزيز العنصرية والعرقية والقبلية والشعوبية والقومية، وتجعل الحق للقوة، وتنصاع لأهواء الطين ونزواته وشهواته، وتجعل الحقيقة قضية نسبية لا أصل لها في الحقيقة والوجود بل تقررها الأطماع والأهواء والنـــزوات والشهوات، وتعتمد في بلوغ أهدافها على التظالم والعدوان.

ولعلي بذلك أن أكون قدمت دليل عمل ورؤية تعيد إلى الأمة المسلمة فهم المعاني المستقرة في وجودها، وبيان جوانب الحق في رؤيتها، وإدراك مدى الطاقات الكامنة في عزيمتها. ولعلّ في هذا البيان أيضاً ما يعين الآخر -ولاسيما الغرب الذي استمرأ شريعة الغاب- على فهم ذاته والرجوع عن غيه وضلاله، وأن يضع حداً لعدوانه وتعدياته، وأن يزيح بذلك عن كاهل الإنسانية ما تعاني من المظالم والمآسي ليسود العدل والإخاء والوئام بين البشر.

وبالله التوفيق والهداية، وهو نعم المولى ونعم النصير.